مجلة جامعة البعث

سلسلة العلوم التاريخية و الاجتماعية

مجلة علمية محكمة دورية

المجلد 44 . العدد 5

1443 هـ - 2022 م

الأستاذ الدكتور عبد الباسط الخطيب

رئيس جامعة البعث

المدير المسؤول عن المجلة

أ. د. ناصر سعد الدين	**رئيس هيئة التحرير**
أ. د. هايل الطالب	**رئيس التحرير**

مديرة مكتب مجلة جامعة البعث

بشرى مصطفى

د. محمد هلال	**عضو هيئة التحرير**
د. فهد شريباتي	**عضو هيئة التحرير**
د. معن سلامة	**عضو هيئة التحرير**
د. جمال العلي	**عضو هيئة التحرير**
د. عباد كاسوحة	**عضو هيئة التحرير**
د. محمود عامر	**عضو هيئة التحرير**
د. أحمد الحسن	**عضو هيئة التحرير**
د. سونيا عطية	**عضو هيئة التحرير**
د. ريم ديب	**عضو هيئة التحرير**
د. حسن مشرقي	**عضو هيئة التحرير**
د. هيثم حسن	**عضو هيئة التحرير**
د. نزار عبشي	**عضو هيئة التحرير**

تهدف المجلة إلى نشر البحوث العلمية الأصيلة، ويمكن للراغبين في طلبها الاتصال بالعنوان التالي:

رئيس تحرير مجلة جامعة البعث

سورية . حمص . جامعة البعث . الإدارة المركزية . ص . ب (77)

. هاتف / فاكس : 2138071 31 963 ++

. موقع الإنترنت : www.albaath-univ.edu.sy

. البريد الالكتروني : magazine@ albaath-univ.edu.sy

ISSN: 1022-467X

شروط النشر في مجلة جامعة البعث

الأوراق المطلوبة:

- 2 نسخة ورقية من البحث بدون اسم الباحث / الكلية / الجامعة) + CD / word من البحث منسق حسب شروط المجلة.
- طابع بحث علمي + طابع نقابة معلمين.
- **اذا كان الباحث طالب دراسات عليا:**

يجب إرفاق قرار تسجيل الدكتوراه / ماجستير + كتاب من الدكتور المشرف بموافقته على النشر في المجلة.

- **اذا كان الباحث عضو هيئة تدريسية:**

يجب إرفاق قرار المجلس المختص بإنجاز البحث أو قرار قسم بالموافقة على اعتماده حسب الحال.

- **اذا كان الباحث عضو هيئة تدريسية من خارج جامعة البعث :**

يجب إحضار كتاب من عمادة كليته تثبت أنه عضو بالهيئة التدريسية و على رأس عمله حتى تاريخه.

- **اذا كان الباحث عضواً في الهيئة الفنية :**

يجب إرفاق كتاب يحدد فيه مكان و زمان إجراء البحث , وما يثبت صفته وأنه على رأس عمله.

- **يتم ترتيب البحث على النحو الآتي بالنسبة لكليات (العلوم الطبية والهندسية والأساسية والتطبيقية):**

عنوان البحث . . ملخص عربي و إنكليزي (كلمات مفتاحية في نهاية الملخصين).

1- مقدمة

2- هدف البحث

3- مواد وطرق البحث

4- النتائج ومناقشتها .

5- الاستنتاجات والتوصيات .

6- المراجع.

- **يتم ترتيب البحث على النحو الآتي بالنسبة لكليات (الآداب – الاقتصاد– التربية – الحقوق – السياحة – التربية الموسيقية وجميع العلوم الإنسانية):**
- عنوان البحث . . ملخص عربي و إنكليزي (كلمات مفتاحية في نهاية الملخصين).

1. مقدمة.
2. مشكلة البحث وأهميته والجديد فيه.
3. أهداف البحث و أسئلته.
4. فرضيات البحث و حدوده.
5. مصطلحات البحث و تعريفاته الإجرائية.
6. الإطار النظري و الدراسات السابقة.
7. منهج البحث و إجراءاته.
8. عرض البحث و المناقشة والتحليل
9. نتائج البحث.
10. مقترحات البحث إن وجدت.
11. قائمة المصادر والمراجع.

7- يجب اعتماد الإعدادات الآتية أثناء طباعة البحث على الكمبيوتر:

أ- قياس الورق 17.5×25 B5.

ب- هوامش الصفحة: أعلى 2.54- أسفل 2.54 – يمين 2.5- يسار 2.5 سم

ت- رأس الصفحة 1.6 / تذييل الصفحة 1.8

ث- نوع الخط وقياسه: العنوان . Monotype Koufi قياس 20

. كتابة النص Simplified Arabic قياس 13 عادي . العناوين الفرعية Simplified Arabic قياس 13 عريض.

ج . يجب مراعاة أن يكون قياس الصور والجداول المدرجة في البحث لا يتعدى 12سم.

8- في حال عدم إجراء البحث وفقاً لما ورد أعلاه من إشارات فإن البحث سيهمل ولا يرد البحث إلى صاحبه.

9- تقديم أي بحث للنشر في المجلة يدل ضمناً على عدم نشره في أي مكان آخر, وفي حال قبول البحث للنشر في مجلة جامعة البعث يجب عدم نشره في أي مجلة أخرى.

10- الناشر غير مسؤول عن محتوى ما ينشر من مادة الموضوعات التي تنشر في المجلة

11- تكتب المراجع ضمن النص على الشكل التالي: [1] ثم رقم الصفحة ويفضل استخدام التهميش الإلكتروني المعمول به في نظام وورد WORD حيث يشير الرقم إلى رقم المرجع الوارد في قائمة المراجع.

تكتب جميع المراجع باللغة الانكليزية (الأحرف الرومانية) وفق التالي:

آ . إذا كان المرجع أجنبياً:

الكنية بالأحرف الكبيرة . الحرف الأول من الاسم تتبعه فاصلة . سنة النشر . وتتبعها معترضة (–) عنوان الكتاب ويوضع تحته خط وتتبعه نقطة . دار النشر وتتبعها فاصلة . الطبعة (ثانية . ثالثة) . بلد النشر وتتبعها فاصلة . عدد صفحات الكتاب وتتبعها نقطة.

وفيما يلي مثال على ذلك:

–MAVRODEANUS, R1986– **Flame Spectroscopy**. Willy, New York, 373p.

ب . إذا كان المرجع بحثاً منشوراً في مجلة باللغة الأجنبية:

. بعد الكنية والاسم وسنة النشر يضاف عنوان البحث وتتبعه فاصلة, اسم المجلد ويوضع تحته خط وتتبعه فاصلة . المجلد والعدد (كتابة مختزلة) وبعدها فاصلة . أرقام الصفحات الخاصة بالبحث ضمن المجلة.

مثال على ذلك:

BUSSE,E 1980 Organic Brain Diseases **Clinical Psychiatry News** , Vol. 4. 20 – 60

ج. إذا كان المرجع أو البحث منشوراً باللغة العربية فيجب تحويله إلى اللغة الإنكليزية و التقيد

بالبنود (أ و ب) ويكتب في نهاية المراجع العربية: (المراجع In Arabic)

رسوم النشر في مجلة جامعة البعث

1. دفع رسم نشر (20000) ل.س عشرون ألف ليرة سورية عن كل بحث لكل باحث يريد نشره في مجلة جامعة البعث.
2. دفع رسم نشر (50000) ل.س خمسون الف ليرة سورية عن كل بحث للباحثين من الجامعة الخاصة والافتراضية .
3. دفع رسم نشر (200) مئتا دولار أمريكي فقط للباحثين من خارج القطر العربي السوري .
4. دفع مبلغ (3000) ل.س ثلاثة آلاف ليرة سورية رسم موافقة على النشر من كافة الباحثين.

المحتوى

اسم البحث	اسم الباحث	الصفحة
ضبط الأسواق في العصر الأموي	د. بسام العلوش د. شيرين حمودي رويده علي	34-11
سبل معالجة الأزمات في الغرب الإسلامي ما بين القرنين 6-8هـ/12-14م	الدكتور: بسام العلوش	70-35
الإعلام ودوره في التحولات السياسية الحركة التومرتية نموذجا	الدكتور: بسام العلوش	106-71
المسنين بعد الحرب في سورية واحتياجاتهم "دراسة ميدانية في محافظة دمشق"	أ.م.د ربى أحمد مزيد	130-107

ضبط الأسواق في العصر الأموي

تقديم : رويده علي . جامعة البعث .كلية الآداب

إشراف الدكتور بسام العلوش بالمشاركة مع الدكتورة شيرين حمودي

ملخص البحث:

نظراً للأهمية الكبيرة للجانب الاقتصادي لأي دولة من الدول، حرص الإسلام على العناية بكل ما يخص الحياة الاقتصادية للدولة العربية الإسلامية، لاسيما الأسواق التي تعد نقطة ارتكاز الاقتصاد، والمحرك الرئيسي لنبض الحياة اليومية، والحلقة الأهم في عمليات البيع والشراء والمبادلة.

لهذا لاقت الأسواق اهتماماً وعنايةً كبيران في الدولة العربية الإسلامية منذ أيام الرسول الكريم (ﷺ) ومروراً بالخلفاء الراشدين، ووصولاً ببني أمية، الذين حرصوا على ضبط الأسواق ومراقبتها من خلال إيجادهم لأساليب صارمة أدت دوراً فاعلاً في تفعيل الرقابة على الأسواق، حيث عينوا مراقبين مخصصين للقيام بهذه المهمة، واختاروا هؤلاء المراقبون ممن تتوافر فيهم الشروط التي من شأنها أن تساعدهم على إنجاح مهامهم التي كُلفوا بها، والتي كان منها حل النزاعات في الأسواق، والاهتمام بأحوال التجار، إضافة إلى مراقبة الأوزان والمكاييل ومنع التلاعب بها، ومن ثم فرض العقوبات على المخالفين، سواءً الغشاشين أو المتاجرين بالمحرمات.

وقد خصص لهؤلاء المراقبين أماكن محددة يتواجدون فيها بشكل دائم ضمن الأسواق، ربما الغاية من ذلك تسهيلُ عملهم، ولكي يكونوا على تماس مباشر ومستمر مع الناس والتجار.

هذه الإجراءات أسهمت في ضبط الأسواق، ومراقبتها، مما انعكس بشكل ايجابي على الحياة العامة للناس في الأسواق.

الكلمات المفتاحية: ضبط، الأسواق، الرقابة، المراقبون، العصر الأموي، الحسبة، العامل على السوق، متولي السوق

Regulating markets in the Umayyad

Summary of the scarch:

Given the great importance of the economic aspect of any country, Islam has been keen on taking care of everything gradated to *economic life of the Arab Islamic state especially the markets, which are the fulcrum of the economy and the main engine of the pulse of daily life and the most important link in the buying and selling operations*

For this reason, the markets received great attention and care in the Arab Islamic state since the days of the Holy Prophet (peace be upon him) *through the Righty-Guided Caliphs, all the way to Banu Umayyad, Those who were keen to control and monitor the markets by finding strict methods that played an active role in activating the supervision of the markets, as they appointed dedicated observers to carry out this task, they chose those observers who met the conditions that would help them to succeed in their tasks, which were settling disputes in the markets and taking care of the conditions of merchants, in addition to monitoring weights and weights and preventing their manipulation, and then imposing penalties on violators, whether cheaters or traffickers.*

These measures contributed to controlling and monitoring the markets, which reflected positively on public life in the markets.

Key words: markets- tuning markets- market factor- Foreman- censorship- Censorship in the Umayyad period

أولاً: المقدمة:

حققت الدولة الأموية في مجال الإدارة إنجازات كثيرة ، فمنذ اللحظة الأولى التي وطأت فيها قدم الخليفة الأموي معاوية بن أبي سفيان أرض دمشق، حاول الاستفادة من كل ما هو مفيد في حكومة الشام من نظم الإدارة، فأبقى على ما يناسب الدولة الجديدة، وأبطل ما لا يتناسب مع الدولة والدين الجديدين، ومع اتساع الدولة العربية الإسلامية في ظل الحكم الأموي، واحتكاك العرب المسلمين بشعوب وأجناس متعددة ومختلفة، تعددت مشاكل المجتمع، وازدادت أعباء الدولة العربية الإسلامية في مختلف مجالات الحياة، السياسية والاجتماعية والاقتصادية، ومن هذه الأعباء التي اربكت الدولة الأموية الناشئة في البداية، كانت إمكانية ضبط الأسواق ومراقبة عمليات البيع والشراء التي تتم داخل هذه الأسواق أو خارجها، بطريقة شرعيّة أو مخالفة، ذلك لأنّ الجانب الاقتصادي لأي دولة من الدول يعد مؤشر تطور وتقدّم لهذه الدولة، إضافة إلى ارتباط هذا الجانب بنبض الحياة العامة للناس، وبقوت يومهم، لهذا كله حرص الأمويون على الاهتمام بهذا الجانب، وبكل الأمور المرتبطة والمتعلقة به، بما في ذلك الأسواق والرقابة عليها، وضبط وتنظيم المبادلات التجارية، وذلك لحماية الناس من تلاعب التجار، والتجاوزات التي يقوم بها الباعة، من غش في البضائع، واحتكار، وغلاء في الأسعار، وتلاعب بالمكاييل والأوزان، وغيرها من أساليب الغش والخداع، التي كان يذهب ضحيتها الناس في الأسواق، وقد حاول الأمويون ضبط الأسواق بطريقة حضاريّة وشرعيّة تتوافق وتعاليم الدين الإسلامي الجديد، فساروا على خطى رسول الله محمد صلوات الله عليه الذي كان يقصد الأسواق ويبيّن للناس أسس المبادلات التجارية وينهاهم عن الغش والتلاعب بأقوات الناس، ومن بعده الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم، ثم حاول الأمويون تطوير أساليب الرقابة بما يتناسب مع الظروف والمعطيات المتغيرة في الدولة، فعلى سبيل المثال، أدى اتساع الدولة العربية الإسلامية في العصر الأموي، إلى صعوبة الإشراف على الأسواق وضبطها بشكلٍ صحيح من قبل الخليفة أو عماله في الناحية الواحدة، لذلك جعل على كل مدينة أو ناحية من نواحي الدولة العربية الإسلامية مراقبون على أسواق هذه المدينة أو الناحية، وتعددت مهام هؤلاء المراقبون وتنوّعت بحسب المستجدات الطارئة في الدولة، ومن هذه المهام حل النزاعات في الأسواق، إضافة إلى مراقبة الأوزان والمكاييل ومنع التلاعب بها،

ومن ثم فرض العقوبات على المخالفين، سواءً الغشاشين أو المتاجرين بالمحرمات، مما انعكس بشكل ايجابي على الحياة العامة للناس في الأسواق التي كانت تشهد الكثير من حالات الغش و الظلم، والواضح أن الأمويين استطاعوا إقامة جهاز إداري حكومي منظم ضبطوا من خلاله شؤون الدولة العربية، السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وأداروا الدولة العربية المترامية الأطراف إدارة ناجحة وقوية.

الهدف من البحث :

توضيح الأثار الإيجابية للإسلام على تفاصيل الحياة العامة للمسلمين وخاصةً الاقتصادية، وكيف انعكست تعاليم الإسلام ونظمه بشكلٍ ايجابي على حياة الناس في الأسواق، وكيف استطاع بني أمية تطبيق الشريعة الإسلامية وتعاليم الدين الجديد بشكل منظّم في الأسواق، مما كان له أبعد الأثر في تنظيمها وضبطها، إضافة إلى توضيح الدور المهم لمراقبي الأسواق الذين عيّنهم الأمويين لضبط الأسواق، ومنع الغش والتلاعب الحاصل فيها، والنتائج الإيجابية المترتبة على وجود هؤلاء المراقبون.

مواد وطرق البحث :

تم الاعتماد في هذا البحث على طريقة التحليل الاستقرائي والاستنتاجي، وذلك من خلال تحليل النصوص المتعلقة بالبحث، واستنتاج المعلومات من النصوص وما أوردته المصادر والمراجع ثم تقديمها بأسلوب واضح وجديد.

ثانياً: تعريف الأسواق:

الأسواق: جمع سوق، والسوق: موضع البياعات التي يتعامل فيها، والسوق كلمة يمكن أن تذكر ويمكن أن تؤنث[1].

وقد سميت السوق بهذا الاسم لأن التجارة تجلب إليها وتساق نحوها من أماكن بعيدة[2]، كما وورد ذكر الأسواق في القرآن الكريم بقوله تعالى:(وقالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً)[3].

أما ابن خلدون فقد عرّف الأسواق بقوله:(اعلم أن الأسواق كلها تشمل حاجات الناس فمنها الضروري، وهي الأقوات من الحنطة، وما في معناها كالباقلاء والبصل والثوم وأشباهه، ومنها الحاجي والكمالي مثل الأدم والفواكه والملابس والملعون والمركب وسائر المصانع والمباني)[4].

وعليه يكون التعريف الأشمل للأسواق، الذي يتطابق كثيراً مع تعريف الأسواق في الوقت الحالي: هي مجموعة الحوانيت والمصانع التي تتركز فيها الحياة الاقتصادية للناس، ومركز الأنشطة اليومية التي يقوم بها الإنسان من صناعة ومبادلات تجارة[5].

ثالثاً: نشأة الأسواق وتطورها وصولاً إلى العصر الأموي:

ارتبطت نشأة الأسواق في الجاهلية بحركة النشاط التجاري الذي كان قائماً على تنوع الأنشطة العامة للناس، من زراعة وصناعة والحرف إضافةً للرعي، فمع انتشار ظاهرة التخصيص في العمل واتساع نطاق المبادلات التجارية، أصبحت المبادلات التجارية تتم عن طريق البيع والشراء، بدلاً من المقايضة.

---

[1] ابن سيده(علي بن إسماعيل، ت458هـ/1065م): المحكم والحيط الأعظم، تح: عبد الحميد هنداوي، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 2000م، ج6، ص524-525؛ ابن منظور(جمال الدين محمد، ت 711هـ / 1311م): لسان العرب ، بيروت، دار صادر، د. ط، 1997م، ج10، ص167.

[2] ابن منظور: لسان العرب،ج10،ص168.

[3] القرآن الكريم، سورة الفرقان، الآية7

[4] ابن خلدون(عبد الرحمن بن محمد، ت 808هـ/ 1405م): مقدمة ابن خلدون، د. م، المطبعة البهية المصرية، د. ت، ص255.

[5] ديمومبين(موريس):النظم الإسلامية، تر: صالح الشماع، فيصل السامر، بغداد، د. د، 1952م، ص249.

فبعد ازهار التجارة، وانتشارها على نطاق واسع، واحتلالها المرتبة الأولى بين الأنشطة الاقتصادية التي مارسها الإنسان، كان لابدّ من وجود أسواق أو أماكن مخصصة لتبادل السلع، تتم فيها عملية البيع والشراء[1].

كان من أهم هذه الأسواق في الجاهلية،(سوق ذي المجاز، وسوق مجنة، وسوق عكاظ)[2] حيث كانت الناس يتوافدون إلى هذه الأسواق من كل النواحي فبالإضافة إلى وظيفتها التجارية، كانت تتم فيها لقاءات أدبية، ومنافسات شعرية بين الأدباء والشعراء[3].

كما كانت تقام أسواق موسمية في القرى الصغيرة والبلدات، حيث كانت هذه الأسواق تعقد في أماكن محددة مرة كل سنة، ربما في نهاية المواسم الزراعية أو الفصول، ذلك لأن هذا النوع من الأسواق ارتبط بالإنتاج الزراعي والحيواني السنوي أو الموسمي[4].

وبعد مجيء الإسلام اهتم الرسول الكريم(ﷺ) بالأسواق اهتماماً كبيراً من حيث تنظيمها وتطهيرها والمحافظة عليها، حيث أكد (صلوات الله عليه) على أهمية الأسواق، عندما حضّ الناس على العمل بالتجارة، فقال:(عليكم بالتجارة فإن فيها تسعة أعشار الرزق)[5]، ثم أكد على أهميتها مرة ثانية، عنما راح يزورها ويلتقي مع الناس الوافدة إليها فيبلغهم دعوة الإسلام، لهذا يمكن القول أن الأسواق ساهمت مساهمة كبيرة في تسهيل مهمة الرسول(ﷺ) ونشر الدعوة الإسلامية، لأنه صلوات الله عليه كان يلتقي جموعاً كبيرة في وقتٍ واحد[6].

---

[1] حويش(عمر حامد):أسواق العرب وأثرها في اللغة والأدب، بغداد، دار الجاحظ للطباعة والنشر، 1977م، ص400.

[2] لمعلومات مفصلة عن هذه الأسواق، ايمكن العودة إلى كتاب: الأفغاني(سعيد):أسواق العرب في الجاهلية والإسلام، دمشق، د. د، ط2، 1960م، ص86.

[3] زيادة(نقولا): الحسبة والمحتسب في الإسلام، بيروت، المطبعة الكاثوليكية، 1962م، ص20-21؛ حويش: أسواق العرب، ص401-408.

[4] خريسات(صالح محمد): أسس ونظم الرقابة على الأسواق في الإسلام، رسالة ماجستير، القاهرة، المعهد العالي للدراسات الإسلامية، 1990م، ص4؛ زيادة: الحسبة والمحتسب، ص20.

[5] الغزالي(محمد بن محمد، ت505هـ/1111م):إحياء علوم الدين، بيروت، دار القلم، 2005م،ج2،ص59.

[6] الكتاني(عبدالحي):التراتيب الإدارية، بيروت، دار إحياء التراث العربي، مج2، ص162-163؛خريسات أسس ونظم الرقابة، ص7-8.

وعندما هاجر الرسول الكريم (صلوات الله عليه) إلى المدينة المنورة، أمر بإقامة أسواق جديدة بالقرب من الأسواق القديمة[1].

وفي عصر الخلفاء الراشدين بقيت الأسواق على حالها من حيث الشكل والتنظيم، حيث بقيت تقام في الفضاء، من دون بناء يحددها أو سقوف تغطيها[2].

فلا يوجد مكان مخصص لكل تاجر يحدد موضعه الذي يبتاع فيه بضائعه، إذ أن الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه(13-23هـ/634-643م) أكد على أنّه لا يوجد أحقيه بموضع أو مكان لأي تاجر، فالأحقية بأي موضع تحددها أسبقية وصول التجار، فمن سبق له الأحقية باختيار المكان الذي يناسبه ليبتاع فيه لأخر يومه، فقد أشار أن الأسواق على سنة المساجد من سبق إلى مقصده، فهو له حتى يقوم إلى بيته أو يفرغ من بيعه[3].

كما وأكد الخليفة الراشدي الرابع علي بن أبي طالب كرم الله وجهه(35-40هـ/655-660م)على ذلك بقوله☹سوق المسلمين، كمصلى للمسلمين من سبق إلى شيء فهو له حتى يدعه يومه)[4].

أما المحاولات الأولى لبناء الأسواق كانت بعد أن تسلّم الأمويين مقاليد الحكم، في خلافة معاوية بن أبي سفيان(41-60هـ/661-680م) الذي قام ببناء داران في المدينة كانا بمثابة أول أسواق تجارية محددة المكان[5].

---

[1] ضمت المدينة المنورة أسواق كثيرة في الجاهلية، كان منها سوق بني قينقاع في حي اليهود، وسوق بزبالة، وسوق الصفصاف؛ خريسات: أسس ونظم الرقابة ،ص9.

[2] اليعقوبي(أحمد بن يعقوب، ت292هـ/905م):البلدان، وضع حواشيه: محمد أمين ضناوي، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 2002م، ص71.

[3] الطبري(محمد بن جرير، ت310هـ/922م): تاريخ الرسل والملوك، تح، محمد أبو الفضل إبراهيم، مصر، دار المعارف، ط4، ج4، ص45،46.

[4] أبو عبيد(القاسم بن سلام، ت224هـ/838م): الأموال، تح: محمد خليل هراس، القاهرة، مكتبة الكليات الأزهرية، 1981م، ص106.

[5] سميت الدار الأولى، دار القطران، والثانية سماها دار النقصان؛ السمهودي(علي بن عبد الله، ت911هـ/1505م): وفاء الوفا بأخبار دار لمصطفى، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1998م، ج2، ص258.

تبع ذلك قيام زياد بن أبيه[1] بإصدار الأوامر لسقف الحوانيت الموجودة في الأسواق لحمايتها من الكلاب بعد أن أصدر أمراً بأن لا تغلق الحوانيت أبوابها، فكان بذلك، أول من سقف الأسواق[2].

يتضح من ذلك أن الأسواق بقيت تقام في الفضاء بطريقة مكشوفة، وعشوائية من دون بناء يحدد معالمها، أو سقوف تغطيها طوال عصر الرسول الكريم والخلفاء الراشدين بعده.

رابعاً: أهمية الرقابة على الأسواق:

لما كان رسول الله محمد (صلوات الله عليه)، رسول علم ومحبة وأخلاق فاضلة، بعثه الله ليتمم مكارم الأخلاق، وليبيّن تعاليم الدين الجديد الذي ينظم تفاصيل الحياة العامة بشكلٍ صحيح، باشر عليه الصلاة والسلام هذه المهام بنفسه، حيث أمر الناس بالمعروف ونهاهم عن المنكر، قال(ﷺ): [من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فمن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان][3].

هذا الحديث كان دعوة صريحة من الرسول الكريم لالتزام أوامر الله واجتناب نواهيه، ومراقبة التجاوزات الحاصلة في المجتمع بكل أنواعها، والحد من هذه التجاوزات ما أمكن.

لهذا فإنّ القيام بتغيير المنكر واجب معين، وفرض مؤكد في بعض الأحيان، فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب على الحكام والولاة والقضاة، لأنّ هؤلاء مكنوا من التغيير الأعلى، وهو اليد بوجوب الطاعة لهم، قال تعالى☹الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وأتوا الزكاة، وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر)[4].

---

[1] زياد بن أبيه: سمي بهذا الاسم باختلاف الناس في أمر أبيه، أمّه سمية كانت جارية الحارث، ويقال أن معاوية اعترف أنه أخوه فسمي زياد بن أبي سفيان، تولى في عهد معاوية الكوفة والبصرة وتوفي سنة 53هـ/672م؛ ابن خلكان(أحمد بن محمد، ت 681هـ/ 1282م): وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تح: إحسان عباس، بيروت، دار صادر، ج6، ص356.

[2] أبو الهلال العسكري(الحسن بن عبد الله، ت395هـ/1004م): الأوائل، تح، محمد السيد الوكيل، القاهرة، دار البشر للثقافة، ط2، 1985م، ص299-300.

[3] النيسابوري(مسلم بن الحاج، ت261هـ/874م): صحيح مسلم، تح: محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1991م،ج1، رقم الحديث:78، ص69.

[4] القرآن الكريم، سورة الحج، الآية41.

وقد أكد الغزالي على أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقال أنه هو القطب الأعظم في الدين، الذي بعث الله انبياءه له، فإن تعطل تعطلت النبوة، واضمحلت الديانة، وعمت الفتنة، وفشت الضلالة، وانتشر الفساد، وخربت البلاد، وهلك العباد[1].

وعليه وكما ورد سابقاً في هذا البحث، فقد كان الرسول(ﷺ) أول من بدأ بتطبيق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، في كل مجالات الحياة، ومنها الأسواق، حيث أوضح الرسول(ﷺ) للناس أساليب التعامل بالأسواق، وبين قواعد المعاملات التي تحكم السوق، فحرص على منع الغش والاحتكار، وحرّم التلاعب بالكيل والأوزان، وأمر التجار بالتعامل بصدق وأمانة[2].

خامساً: ضبط الأسواق والرقابة عليها في العصر الأموي:

لم تكن الرقابة على الأسواق وليدة الصدفة في الدولة العربية الإسلامية في العصر الأموي، بل كانت كما ورد سابقاً في هذا البحث موجودة منذ أيام الرسول الكريم(ﷺ) ومن بعده الخلفاء الراشدين، حيث أن الرسول كان يتفقد الأسواق ويشرف على تتبع أحوال التجار وشؤنهم بنفسه، وحديث صاحب صبرة الطعام أكبر دليل على ذلك[3].

ولكن عندما كثرت الأسواق نتيجة اتساع الدولة العربية، وكثرت مهام الرسول الكريم(ﷺ) لم يعد بإمكانه القيام بمهمة الرقابة وحده، فأوكل بعض أصحابه بالأمر ليساعدوه في ضبط الأسواق ومنع التجاوزات الحاصلة فيها[4].

وقد سار الخلفاء الراشدين على نهج الرسول الكريم في مراقبة الأسواق والعناية فيها، فباشروا الإشراف عليها بأنفسهم[5]، واستعانوا بموظفين ومساعدين شاركوهم في هذه المهمة

---

[1] الغزالي(محمد بن محمد الطوسي، ت505هـ/1111م): إحياء علوم الدين، د. م، د. د، ج2، ص229.

[2] خريسات: أسس ونظم الرقابة، ص9-12.

[3] النيسابوري: صحيح مسلم، رقم الحديث:102، ص99.

[4] ابن سعد(محمد بن سعد، ت230هـ/844م): الطبقات الكبرى، تح: محمد عبد القادر عطا، بيروت، دار الكتب العلمية،ط1، 1990م، ج2، ص110.

[5] كان الخليفة عمر بن الخطاب يتجول في الأسواق ويراقب عمليات البيع والشراء، ويحذر الناس عن القيام بأعمال الاحتكار، ويوجههم إلى الصراط المستقيم، فكان يمر في السوق ومعه الدّرّة فيزجر بها غلاة الأسعار والغشاشين؛ الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج2، ص578؛ ابن الجوزي(عبد الرحمن بن علي، ت597هـ/1201م): مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، بيروت، دار ابن خلدون، 1996م، ص67،68،

في مختلف أنحاء الدولة العربية الإسلامية[1]، حتى أنه كان من هؤلاء الموظفين، نساء مارسنا عمل الرقابة على الأسواق من أيام الرسول الكريم(ﷺ)، يذكر منهنّ سمراء بنت نهيك الأسدية[2] التي كانت تمر بالأسواق وتأمر بالعروف وتنهي عن المنكر، وتضرب الناس بسوط كان معها، فعندما تسلم الخليفة عمر بن الخطاب الخلافة ابقاها على عملها في الأسواق، وكان كلما دخل إلى السوق مرّ بها[3].

وبعد انتهاء الفتوحات الإسلامية، عمل المسلمون على بناء الأسواق في الأمصار والمدن الجديدة، وأصبحوا يرون أنّه من أهم شروط اختطاط المدن وبنائها أن يتوافر فيها المسجد والأسواق، حيث كانت الأسواق تبنى بالقرب من المسجد أو حوله[4].

فغدى لكل مدينة أسواقها الدائمة التي تباع فيها منتجات هذه المدينة ومصنوعاتها، بما يحقق الراحة والاستقرار للناس، لكن ذلك لا يعني انتهاء ظاهرة الأسواق المتنقلة أو الموسمية، فقد بقيت هذه الأسواق تقام بالنواحي التي بقي أهلها على نزعتهم البدوية[5].

وعند انتقل الخلافة للأمويين استمر نظام المراقبة الذي كان سائداً في عصر الرسول والخلفاء الراشدين، حيث اتبع الأمويون في مراقبة الأسواق واختيار المراقبين عليها ما سبقهم من نظم، خاصةً بعد أن اتسعت حدود الدولة العربية الإسلامية، وانضوى تحت لوائها مساحات واسعة من البلاد، ضمت عناصر سكانية متنوعة من جنسيات مختلفة، لكل منها عاداتها وتقاليدها، لهذا كان لابدّ لهم أن يسيروا على نهج الخلفاء الراشدين في ضبط الأسواق والإشراف عليها، حيث أن الخليفة أو الوالي هو من يقوم بمهمة الإشراف

[1] القرطبي(يوسف بن عبدالله، ت463هـ/1070م): الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تح: محمد البجاوي، بيروت، دار الجبل، ط1، 1992م،ج2، ص567.

[2] سمراء بنت نهيك الأسدية: أدركت رسول الله(ﷺ)، كانت تمر بالأسواق، وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وتضرب الناس بسوط كتن معها؛ ابن عبد البر(يوسف بن عبدالله،ت463هـ/1070م): الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تح: عادل مرشد، الأردن، دار الأعلام، ط1، 2002م، رقم الترجمة:3356، ص914.

[3] ابن الجوزي: مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، ص41

[4] المقدسي(محمد بن أحمد، ت375هـ/983م):أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، القاهرة، مكتبة مدبولي، ط3، 1991م، ص117-130.

[5] يذكر من هذه الأسواق، سوق المربد في البصرة، وأسواق بزاعة إلى الشرق من حلب؛ زياد: الحسبة، ص121.

على الأسواق، بمساعدة عمال ومساعدين يقوم باختيارهم بنفسه ممن هم أهل للثقة و تتوافر فيهم الكفاءة[1].

وفي بعض الأحيان كان الخلفاء الأمويين وولاتهم يراقبون الأسواق ويطلعون على ما يجري فيها بطريقة مباشرة، فينزلوها متنكرين بزي العامة حتى لا يعرفهم التجار ويأخذون احتياطهم[2].

ربما كان ذلك أحد أساليب زرع الخوف والشك في قلوب التجار وأصحاب الضائع والمصالح في الأسواق، حتى لا يتجرؤوا على ارتكاب المخالفات أو التجاوزات.

فالخليفة الأموي الوليد بن عبدالملك[3](86-96هـ/705-714م) كان ينزل الأسواق ويتجول فيها، فيراقبها عن كثب، ويسأل التجار عن الأسعار، ويمر بالبقال فيأخذ حزمة البقل، فيقول: بكم هذه؟ فيقول بفلس، فيقول: زد فيها[4].

كما وروي عن الخليفة عمر بن عبد العزيز(99-101هـ/717-719م) اهتمامه الكبير وعنايته بالأسواق، حيث كتب إلى عماله:(إنما السوق صدقة فلا يضرب فيها الكراء)[5].

وقد حرص في معظم كتبه التي أرسلها إلى عماله على تذكيرهم بأوامر الله، وتحذيرهم من مخالفة هذه الأوامر، وحضّهم على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كما ورأى من الضرورة توحيد المكاييل والأوزان في كل الأرض ، لأنه على حد قوله:(ليس في المكيال زيغ إلا من تطفيف، ولا في الميزان فضل إلا من بخس)[6].

---

[1] زيود(محمود): نظام الحسبة في الإسلام، سوريا، مجلة دراسات تاريخية،1988م، ع29-30، ص152.

[2] البلاذري(أحمد بن يحيى، ت279هـ/892م): أنساب الأشراف، تح، سهيل زكار، رياض زركلي، إشراف: مكتب البحوث والدراسات، بيروت، دار الفكر، ط1، 1996م،ج5،ص233.

[3] الوليد بن عبد الملك: تولى الخلافة بعهد من أبيه سنة (86هـ/705م)، كان يلقب بالنبطي، وكانت مدة خلافته تسع سنوات وعدة أشهر، ثم مات في دمشق سنة(96هـ/714م)، وقد عرف عنه كثرة قراءة القرآن الكريم؛ ابن قتيبة(عبدالله بن مسلم،ت276هـ/889م): المعارف، تح، ثروت عكاشة، القاهرة، دار المعارف، ط2، د. ت، ص359.

[4] الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج6، ص496.

[5] ابن عبد الحكم(عبد الرحمن بن عبد الله، ت257هـ/870م): سيرة عمر بن عبد العزيز، نسخها وصححها: أحمد عبيد، بيروت، د. د، ط5، 1967م ص90؛ جابر(سلسبيل): الرقابة على الأسواق من القرن الأول حتى نهاية القرن الثالث، كلية الإمام الكاظم(عليه السلام) للعلوم الإسلامية الجامعة ،2019م، ص3.

[6] ابن عبد الحكم: سيرة عمر بن عبد العزيز، ص142،81،87.

وهذا إن دلّ على شيء، فيدل على اهتمام الخلفاء الأمويين بالشؤون العامة للناس في الدولة العربية الإسلامية، وحرصهم على تحقيق العدل، ورفع الظلم الحاصل في الأسواق.

سادساً: صفات وألقاب مراقبي الأسواق في العصر الأموي:

كان لابدّ للخلفاء وولاتهم أن يختاروا لمهمة الرقابة على الأسواق أشخاص تتوافر فيهم مجموعة من الصفات الحسنة، باعتبار مهمتهم هذه من المهام الحساسة، خاصةً وأنهم مسؤولين أمام الله والخليفة عن إقامة العدل وإنصاف الناس بالأسواق، لكن في الحقيقة لم تذكر المصادر صفات وألقاب صريحة لهؤلاء المراقبون في العصر الأموي، إلا أنّه يمكن استنتاج بعض هذه الصفات والألقاب من خلال بعض روايات المصادر، حيث يلاحظ أن مهمة ضبط الأسواق ومراقبتها في العصر الأموي قريبة جداً من مهمة المحتسب[1]التي ظهرت في العصر العباسي، أو يمكن القول أنها الأساس لهذه المهمة[2].

لهذا يمكن استنتاج الصفات التي تمتع بها هؤلاء المراقبون بالعصر الأموي بصفات المحتسب في العصر العباسي والتي كان أهمها:

1- أن يتمتع المراقب بالعلم والمعرفة، وأن يكون عادلاً ونزيهاً، ومطلعاً على المسائل الفقهية، متقناً لبعض العمليات الحسابية حتى يتمكن من كشف التلاعب بالأسعار، إضافةً إلى قدرته على تنفيذ الأحكام على المخالفين بكل صرامة، ومن دون تهاون[3].

2- كما يجب أن يتمتع بالأخلاق الحميدة واللين والرفق في التعامل مع الناس أثناء نصحهم وأثناء معاقبتهم، ويجب أن يكون حكيماً ومتأنياً في إصدار أحكامه، فلا

---

[1]المحتسب: هو من نصّبه الإمام أو نائبه للنظر في أحوال الرعية، والكشف عن أمورهم ومصالحهم، والحسبة لغةً: مصدر احتسابك الأجر على الله، والحسبة اصطلاحاً: أمر بالمعروف إذا ظهر تركه، ونهي عن المنكر إذا ظهر فعله؛ الماوردي (أبي الحسن علي بن محمد، ت 450هـ/ 1058م): الأحكام السلطانية، تح: أحمد جاد، القاهرة، دار الحديث، 1427م، ص240،54؛ ابن منظور: لسان العرب، ج4، ص114.

[2]الدليل على ذلك ما ذكره المؤرخ الطبري في حوادث سنة(146هـ/762م) عن تولية الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور رجل اسمه أبو زكريا يحيى بن عبدالله منصب الحسبة في بغداد والأسواق ؛ الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج7، ص653.

[3] ابن الأزرق(محمد بن علي، ت897هـ/1491م): بدائع السلك في طبائع الملك، تح: علي سامي النشار، القاهرة، دار السلام، ط1، 2008م، ص230.

يبادر إلى معاقبة المخالف من أول ذنب يصدر منه أو زلة تبدو، لأن الناس غير معصومين، فالعصمة بالخلق مفقودة فيما سوى الأنبياء، فإذا لاحظ نقص بالمكاييل أو بالأوزان، أو ضبط غشّ ببضاعة أو صناعة، استتاب المخالف عن المعصية، ووعظه وخوّفه، وأنذره بالعقوبة إن عاد إلى هذا الغش ثانيةً[1].

هذه أهم الصفات التي تمتع بها المراقبون وعمال الأسواق في العصر الأموي، والتي كما هو ملاحظ، هي صفات يجب أن يتمتع بها كل أصحاب الرأي والمسؤولين عن شؤون الرعية والمسلمين، سواء حكام أو ولاة أو قضاة.

أما ألقاب هؤلاء المراقبون والعمال فمثلها مثل صفاتهم لا وجود لها بشكل صريحة وإنما يمكن استنتاجها من خلال الروايات والحوادث، حيث لم تذكر تسمية صريحة أو لقب واضح لهؤلاء المراقبون في العصر الأموي كما حدث في العصر العباسي، حيث أصبح من يتولى هذه المهمة يعرف بالمحتسب، لكن بالعصر الأموي عرف هؤلاء المراقبون بألقاب متعددة، منها:

الوالي على السوق، أو متولي السوق، حيث ذكر الأصفهاني في كتابه الأغاني رواية عن أحد متولي السوق بالعصر الأموي، فيقول: كان البُردان[2] متولي السوق بالمدينة، فقدم إليه رجل يدّعي على رجلٍ أخر، فحكم بينهما، وأمر بحبس المعتدي منهما[3].

أما اللقب الثاني لمراقبي الأسواق الذي ورد ذكره في المصادر فهو العامل على السوق، حيث يذكر البلاذري في كتابه أنساب الأشراف أثناء حديثه عن زياد بن أبيه أنّ زياد كان يجلس يوم الجمعة، فيسأل رسل عماله عن بلادهم وينظر فيما قدموا له، وفي أمر الأموال

[1] الشيزري(عبدالرحمن بن نصر، ت590هـ/1193): نهاية الرتبة في طلب الحسبة، نشره: السيد الباز العريني، إشراف: محمد مصطفى زيادة، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف، 1946م،ص8-10.

[2] البُردان: لقب غلب عليه، كان متولي السوق في المدينة، أخذ الغناء عن معبد وقبله عن جميلة، وكان معدلاً مقبول الشهادة؛ الأصفهاني(علي بن الحسين، ت356هـ/966م):الأغاني، تح، إحسان عباس، إبراهيم السعافين، بكر عباس، بيروت، دار صادر، ط1، 2002م،ج8،ص199.

[3] الأصفهاني: الأغاني، ج8، ص199.

والنفقات، ثم يأتيه عماله على دار الرزق والكلاء والسوق، فيسألهم عمّا ورد دار الرزق، وعن الأسعار والأخبار وما يحتاجون إليه من مصالحهم[1].

يضاف إلى هاذين اللقبين اللذين عرف بهما مراقبو الأسواق في العصر الأموي، لقب أخر هو صاحب السوق[2].

كما أورد الطبري لقب آخر لهؤلاء المراقبين هو أعوان السوق، حيث يذكر: (أنّ داوود وعيسى ابنا علي بن عبد لله بن عباس كانا أعوان السوق بالعراق لخالد بن عبد لله القسري[3] أيام الخليفة هشام بن عبد الملك[4]، فأقاما عنده، فوصلهما وصيرهما في الأعوان)[5].

يتبين من ذلك أنّ مراقب السوق في العصر الأموي لم يكن له لقب صريح يعرف به، أو يميّز مهمته، فكما توضّح أنّه عرف أحياناً بعامل السوق، وأحياناً بصاحب السوق، أو المتولي على السوق، وأحياناً أخرى بأعوان السوق.

ربما كان سبب هذا التعدد بالألقاب لمراقبي الأسواق، هو أنّه كان لكل عامل منهم مهمة مختلفة عن مهمة الأخر في الأسواق، فهذا ربما مسؤول عن فض النزاعات الحاصلة في الأسواق، وهذا مسؤول عن مراقبة المكاييل والأوزان والأسعار، وذاك مسؤول عن المهام الأخرى في الأسواق.

---

[1] كان عامل السوق على السوق الجعد بن قيس النمري؛ البلاذري (أحمد بن يحيى، ت 279هـ/892م): أنساب الأشراف، تح: سهيل زكار، رياض زركلي، بيروت، دار الفكر، د.ت، ج5، ص223.

[2] الحسيني(فاضل):آفاق الحضارة العربية الإسلامية، عمان، دار الشروق، ط1، 2006م، ص164.

[3] هو خالد بن عبد الله القسري بن يزيد بن أسد، تولى العراق عدة سنوات ثم عزله الخليفة هشام ووضعه بالسجن، حيث تعرض للتعذيب فيه، قتل أيام الخليفة الوليد بن يزيد سنة (126هـ/743م)؛ ابن أيبك الصفدي (خليل ابن أيبك، ت764هـ/1362م): الوافي بالوفيات، تح، أحمد الأرناؤوط، تركي مصطفى، بيروت، دار أحياء التراث العربي، ط1، 2000م، ج13، ص155-156.

[4]هشام بن عبد الملك: عاشر الخلفاء الأمويين، تولى الخلافة بعهد من أخيه يزيد، ولد سنة (76هـ/695م)، استمرت خلافته19سنة(105-125هـ/724-743م) توفي بالرصافة ودفن بها، القرماني (أحمد بن يوسف، ت1019هـ/1610م): أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ، تح، أحمد حطيط، فهمي سعد، بيروت، عالم الكتب، ط1، 1992م ، ج2، ص48.

[5] الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج2، ص202

سابعاً: أهم المهام التي أوكلت لمراقبي الأسواق في العصر الأموي:

حاول الخلفاء الأمويون وولاتهم وعمالهم تطبيق الشريعة الإسلامية والالتزام بكل ما جاء به رسول الله محمد(ﷺ) وذلك من خلال عمل هؤلاء المراقبون الذين عيّنوهم على الأسواق، حيث أمروهم بالالتزام بأوامر الله واجتناب نواهيه، لهذا يمكن القول أنّ مهام هؤلاء المراقبون كانت الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ورفع الظلم وتحقيق العدل، وتحقيق الاستقامة في كل الأمور المخالفة التي كانت تحصل بالأسواق، وبكل المبادلات والنشاطات المرتبطة بهذه الأسواق، ويمكن إيجازها بما يلي:

1- الإشراف الكامل على الأسواق ومراقبة التجاوزات الحاصلة فيها، وهذا يشمل البضائع والمكاييل والأوزان، وغيرها من المعاملات التجارية[1].

2- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومنع كل ما حرمه الدين الإسلامي، مثل الغش والاحتكار وزيادة الأسعار، وتحريم بيع المحرمات، والدليل على هذا كتب الخليفة عمر بن عبد العزيز إلى عماله يأمرهم فيها بالمعروف وينهاهم عن المحرمات، وشرب الخمور والنبيذ، ويمنعهم من العمل بالتجارة في سلطانهم[2].

3- فض المنازعات والمخالفات الحاصلة في الأسواق، والدليل على ذلك ما ذكره الأصفهاني عن عامل السوق بردان الذي سبقت الإشارة إليه في هذا البحث، أنه فصل في منازعة حاصلة بين رجلين[3].

4- مراقبة أصحاب المهن المختلفة ومراقبة الصناع والتجار مراقبة حازمة، كالأطباء والمعلمين والخبازين والعطارين وغيرهم[4].

5- حراسة الأسواق ليلاً من اللصوص والسارقين وقطاع الطرق، الذين كانوا يستغلون خلو الأسواق ليلاً ليقوموا بعمليات السرقة والنهب والتخريب للحوانيت والدكاكين، وهذا ما دفع زياد بن أبيه لاتخاذ تدابير تحد من هذه الحوادث، فكان

[1] الحسيني: آفاق الحضارة العربية الإسلامية، ص165.

[2] ابن عبد الحكم: سيرة عمر بن عبد العزيز، ص142،88،87،81.

[3] الأصفهاني: الأغاني، ج8، ص199

[4] أبو خليل(شوقي): الحضارة العربية الإسلامية، بيروت، دار الفكر، دمشق، دار الفكر، ط1، 2002م، ص267.

أول من أوجد نظام العسس[1] على الأسواق، واتخذ لهم من أصحاب الدكاكين والحوانيت أجراً[2].

6- مراقبة الأخلاق العامة، كمنع الناس من اتخاذ الأكساب الفاجرة، ومنع السحر والشعوذة والكهان عن منكراتهم، ومنع تعرض الرجال للنساء في الأماكن العامة أو عند حمامات النساء[3].

ثامناً: أبرز الإجراءات التي قام بها الأمويين والتي ساهمت في ضبط الأسواق:

الحقيقة إن الأمويين لم يكتفوا بتعيين مراقبون على الأسواق عند محاولتهم ضبط السوق، ومنع المخالفات والتجاوزات الحاصلة فيها، لأنّهم رأوا أن ذلك لن يكن كافياً لدولة متسعة الأركان والحدود كالدولة العربية الإسلامية، لذلك قاموا بعدة إجراءات ساهمت مساهمةً فاعلة في تحقيق الغاية التي يسعون إليها وهي، مراقبة الأسواق والحد من حالات الظلم والغش والتدليس الحاصلة فيها، كان أهم وأبرز هذه الإنجازات:

1- قيام الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان[4]بضرب عملة إسلامية كنوع من الاستقلال الاقتصادي والمالي للدولة العربية الإسلامية، مع اتساع الدولة الإسلامية، وازدياد نشاطها التجاري، ومع انهيار الإمبراطورية الفارسية، تأثرت كمية النقود المتداولة في الأسواق، فلم تعد هذه النقود كافية لسد حاجة السوق، يضاف إلى كل هذه الظروف انتشار ظاهرة الغش والتزييف في الدراهم الفارسية والدنانير الرومية، وفي ظل كل هذه العوامل وهذا الركود الاقتصادي كان لا بد لدولة كبيرة وعظيمة كالدولة العربية الإسلامية من القيام بنهضة وحركة تحقق لها استقلالها المالي، وتجعل منها دولة ذات ملامح خاصة، لا تخضع في تعاملها

---

[1] العسس: جمع عاس، والعس نفض الليل عن أهل الريبة، لهذا سمي من يحرس الناس ليلاً عاسساً؛ ابن منظور: لسان العرب، ج6، ص139.

[2] أبو الهلال العسكري: الأوائل، ص299.

[3] الحسيني: آفاق الحضارة العربية الإسلامية، ص165.

[4] عبد الملك بن مروان: هو عبد الملك بن مروان بن أبي العاص، أول من سمي عبد الملك في الإسلام، وقد تولى الخلافة سنة (65هـ/684م)، وهو أول من سك النقود العربية في الإسلام، توفي سنة (86هـ/705م) ودفن في دمشق؛ الكتبي(محمد بن شاكر، ت764هـ/1362م): فوات الوفيات، تح، إحسان عباس، بيروت، دار صادر، د. ط، د. ت ، ج2، ص402.

المالي لأي تبعية[1] هذا الإنجاز الحضاري الكبير تم على يد الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان سنة(74هـ/ 693م)، على اختلاف بين المؤرخين على التاريخ، فمنهم من قال: أن عبد الملك بن مروان كان أول من ضرب السكة[2] في الإسلام أو ما يمكن أن نسميه (السكة الإسلامية) وذلك سنة 76هـ / 695م[3]، حيث أنشأ عبد الملك دار لضرب في دمشق، وبدأ بإصدار الدينار العربي الذهبي، وكتب إلى الحجاج في العراق بإنشاء دار ضرب في الكوفة ، فانتفع الناس من ذلك، حيث أمر بإبطال التعامل بالنقود الرومية والفارسية وتهدد من لا يتعامل بها، وقد كتب على الدينار: " قل هو الله أحد " وفي الوجه الآخر : " لا إله إلا الله " وطوقه بطوق فضة، وكتب فيه :" ضرب بمدينة كذا " وحرصت الدولة على عدم المساس والتلاعب بالنقد، فمنعت الضرب إلا في دار الحكومة المعتمد، وعاقبت بشدة من يمس العملة بغش أو تزييف، فهذا عبد الملك لم يكن ليتوانى عن قطع يد رجل لأنه كان يضرب على غير السكة الإسلامية وكانت الهبيرية والخالدية واليوسفية أجود نقود بني أمية[4].

---

[1] ابن عبد ربه (أحمد بن محمد، ت 328هـ / 939م):العقد الفريد، تح: محمد سعيد العريان، المكتبة التجارية الكبرى، 1953م ،ج5، ص 138؛ ابن كثر(إسماعيل بن عمر، ت 774هـ/ 1372م): البداية والنهاية، بيروت، مكتبة المعارف، ط2، 1990م، ج9، ص 14؛ حلاق(حسان علي): تعريب النقود والدواوين في العصر الأموي، دار الكتاب اللبناني والمصري، 1978م ، ص 45 .

[2]السكة: هي النقود المتعامل بها بين الناس، وسك النقود: هو وضع علامة السلطان على تلك النقود عن طريق رسم العلامة في خاتم جديد مخصص لهذا الغرض يوضع عاى النقد ويضرب عليه بمطرقة حتى تظهر العلامة على النقد؛ الماوردي: الأحكام السلطانية والولايات الدينية، ص 199 .

[3] الطبري: تاريخ الطبري، ج6، ص256؛ ابن الأثير(إسماعيل بن محمد ا، ت 630هـ/ 1232م): الكامل في التاريخ، تح: الفداء عبدالله، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1987م ج4، ص167؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج9، ص 14-15؛ المقريزي(أحمد بن علي المقريزي، ت 845هـ / 1441م): النقود الإسلامية، تح : محمد السيد علي، النجف الأشرف، ط5، ص 38، 40 .

[4] البلاذري: فتوح البلدان، ص241، 442؛ البيهقي(إبراهيم بن محمد، ت 320هـ/ 931م) : المحاسن والمساوئ، بيروت، دار صادر، 1960م، ص467- 468؛ أبو الهلال العسكري: الأوائل، ص254؛النويري(شهاب الدين أحمد، ت733هـ/ 1332م): نهاية الأرب في فنون الأدب، تح: علي محمد البجاوي، مصر، الهيئة المصرية العامة، 1976م، ج21، ص 223- 224؛ المقريزي: النقود الإسلامية، ص11؛ السيوطي (عبد الرحمن، ت 911هـ / 1505م): تاريخ الخلفاء، اعتني به: محمد غسان نصوح الحسيني، قطر، مطبوعات وزارة الأوقاف الإسلامية، ط2،

2- توحيد المكاييل والأوزان في جميع أنحاء الدولة العربية الإسلامية، حيث كان الخلفاء الأمويين حريصين كل الحرص على أن تكون المكاييل والأوزان صحيحة ومتساوية لا زيادة فيها ولا نقصان، لذلك أمروا بصب وصنع القوارير والصناجات المخصصة للكيل والميزان من المواد التي تستحيل الزيادة والنقصان، وقد كان هذا الإجراء مكملاً للإجراء الأول الذي قام به الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان في ضربه للسكة الإسلامية[1]، بعد ذلك جاء الخليفة العباسي عمر بن عبد العزيز ليؤكد مرة ثانية على ضرورة توحيد المكاييل والأوزان لأنه على حد قوله:(ليس في المكيال زيغ إلا من تطفيف، ولا في الميزان فضل إلا من بخس)[2]، وعليه أمر والي مصر عبيد الله بن الحبحاب[3] بصناعة بعض هذه المكاييل والأوزان من الرصاص والزجاج كونها مواد غير قابلو للنقصان أو التغيير مع الزمن[4].

هذه الإجراءات التي قام بها الخلفاء الأمويين حققت نقلة نوعية في الحياة الاقتصادية للدولة العربية الإسلامية بشكلٍ عام، وفي ضبط الأسواق وحمايتها من النقود المغشوشة والعملة المزيّفة، ومن تلاعب الباعة بالأوزان والمكاييل بشكلٍ خاص.

الخاتمة والنتائج:

2013م، ص 358؛الجفال(خليل إبراهيم): عبد الملك بن مروان الناقد الأديب ، بيروت، دار النضال، ط1، 1991م ، ص114، 115؛ أبو النصر(عمر): عبد الملك بن مروان، بيروت، المكتبة الأهلية ، ط1، 1962م ، ص 239.

[1]الدميري(محمد بن موسى، ت808هـ/1405م):حياة الحيوان الكبرى، تح: إبراهيم صالح، دمشق، دار البشائر، ط2005،1م، ص228.

[2] ابن عبد الحكم: سيرة عمر بن عبد العزيز، ص87.

[3]عبيد الله بن الحبحاب: كان والياً على مصر من قبل هشام بن عبد الملك، ومن ثم كتب إليه هشام بالمسير إلى أفريقيا، وقد أصبح والياً فيها على الأندلس وإفريقيا ومصر، وعندما ثار البربر وخلعوا طاعته اضطر للعودة إلى المشرق (سنة 123هـ/740م) وبقي فيها حتى توفي، ابن الآبار(محمد بن عبد الله، ت658هـ/1260م): الحلة السيراء، تح، حسين مؤنس، مصر، دار المعارف، ط1، 1963م، ج2، ص336.

[4]حمودة(عبد الحميد): تاريخ المغرب في العصر الإسلامي منذ الفتح الإسلامي وحتى قيام الدولة الفاطمية، القاهرة، دار الثقافة للنشر، ط1، 2007م، ص235.

بعد الانتهاء من هذا البحث، الذي حمل عنوان (ضبط الأسواق في العصر الأموي) يمكن القول أن الأمويين استطاعوا وعلى الرغم من حداثة دولتهم، وكثرة الفتن والمشاكل السياسية التي واجهتهم، تمكنوا من ضبط الأسواق وفرض رقابة صارمة عليها، كنوع من تطبيق لشريعة الله الذي أمر الناس بالمعروف ونهاهم عن المنكر، مما ساهم في رفع الظلم عن كثير من الناس في الأسواق من الغشاشين والمدلسين، وإقامة العدل قدر المستطاع في الدواة العربية الإسلامية، فمن خلال هذا البحث يمكن استنتاج ما يلي:

1- كان الرسول الكريم(ﷺ) أول من باشر مهمة الرقابة على الأسواق، حيث بيّن للناس أهمية هذه الأسواق، وضرورة التزام أوامر الله في المعاملات داخل الأسواق، ونهاهم عن الغش والتلاعب بالأوزان.

2- بقيت الأسواق من دون بناء يحددها أو سقوف تغطيها حتى العصر الأموي، فكان الأمويين أول من بنى للأسواق أبنية مستقلة.

3- لم يعرف مراقبي الأسواق بألقاب صريحة، تدل على عملهم، كما حدث في العصر العباسي فيما بعد، بل كان يشار إليهم بألقاب متعددة مثل، الوالي على السوق، أو العامل على السوق، أو صاحب السوق.

4- كانت وظيفة الرقابة على الأسواق في العصر الأموي أساس لمنصب الحسبة الذي ظهر في العصر العباسي.

5- تعددت مهام المراقبون على الأسواق، وتطوّرت مع اتساع أركان الدولة العربية الإسلامية في العصر الأموي.

6- كان إصرار الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان على ضرب عملة إسلامية خاصة بالدولة العربية الإسلامية، إنجاز حضاري كبير يسجل له، حقق من خلاله استقلال مادي للدولة العربية ونهضة اقتصادية شملت كل مجالات الحياة، مما كان له أبعد الأثر على تنظيم المعاملات النقدية وضبطها في الأسواق

7- يلاحظ تأكيد واهتمام الخلفاء الأمويين وعمالهم بتوحيد المكاييل والأوزان، كنوع من الرقابة على الأسواق وضبط محاولات الغش والتدليس الحاصلة فيها.

8- كان للإجراءات والأساليب التي قام بها الأمويين دور كبير في ضبط الأسواق وتعزيز عملية الرقابة عليها، مما انعكس بشكلٍ ايجابي على كل مفاصل الحياة

العامة في الأسواق، من رفع الظلم وإقامة العدل، وتساوي الحقوق، والأمر بالمعروف واجتناب النواهي التي نهى عنها الله سبحانه وتعالى.

المصادر:

1- القرآن الكريم، سورة الفرقان، الآية7.

2- ابن الآبار(محمد بن عبد الله، ت658هـ/1260م): الحلة السيراء، تح، حسين مؤنس، مصر، دار المعارف، ط1، 1963م، ج2، ص336.

3- ابن الأثير(محمد بن عبد الكريم، ت 630هـ/ 1232م): الكامل في التاريخ، تح: الفداء عبدالله، بيروت ، دار الكتب العلمية، ط1، 1987م ج4.

4- ابن الأزرق(محمد بن علي، ت897هـ/1491م): بدائع السلك في طبائع الملك، تح: علي سامي النشار، القاهرة، دار السلام، ط1، 2008م.

5- الأصفهاني(علي بن الحسين،ت356هـ/966م): الأغاني، تح، إحسان عباس، إبراهيم السعافين، بكر عباس، بيروت، دار صادر، ط1، 2002م،ج8،ص199.

6- ابن أيبك الصفدي(خليل بن أيبك، ت764هـ/1362م):الوافي بالوفيات، تح، أحمد الأرناؤوط، تركي مصطفى، بيروت، دار أحياء التراث العربي، ط1، 2000م، ج13.

7- البلاذري(أحمد بن يحيى، ت279هـ/892م): أنساب الأشراف، تح، سهيل زكار، رياض زركلي، إشراف، مكتب البحوث والدراسات، بيروت، دار الفكر، ط1، 1996م،ج5.

8- البيهقي(إبراهيم بن محمد، ت 320هـ/ 931م) : المحاسن والمساوئ، بيروت ، دار صادر، 1960م.

9- ابن الجوزي(عبدالرحمن بن علي، ت597هـ/1201م): مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، بيروت، دار ابن خلدون، 1996م .

10-ابن خلدون(عبد الرحمن بن محمد، ت 808هـ/ 1405م): مقدمة ابن خلدون، د. م، المطبعة البهية المصرية، د. ت.

11-ابن خلكان(أحمد بن محمد، ت681هـ/ 1282م): وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تح: إحسان عباس، بيروت، دار صادر، ج6، ص356.

12-الدميري(محمد بن موسى، ت808هـ/1405م):حياة الحيوان الكبرى، تح: إبراهيم صالح، دمشق، دار البشائر، ط2005،1م.

13-ابن سعد(محمد بن سعد، ت230هـ/844م): الطبقات الكبرى، تح: محمد عبد القادر عطا، بيروت، دار الكتب العلمية،ط1، 1990م، ج2.

14-السمهودي(علي بن عبد الله، ت911هـ/1505م): وفاء الوفا بأخبار دار لمصطفى، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1998م، ج2.

15- ابن سيده(علي بن إسماعيل، ت458هـ/): المحكم والحيط الأعظم، تح: عبد الحميد هنداوي، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 2000م، ج6.

16- السيوطي(جلال الدين عبد الرحمن، ت 911هـ / 1505م): تاريخ الخلفاء، اعتني به: محمد غسان نصوح الحسيني، قطر، مطبوعات وزارة الأوقاف الإسلامية، ط2، 2013م.

17- الشيزري(عبدالرحمن بن نصر، ت590هـ/1193): نهاية الرتبة في طلب الحسبة، نشره: السيد الباز العريني، إشراف: محمد مصطفى زيادة، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف، 1946م.

18- الطبري(محمد بن جرير، ت310هـ/922م): تاريخ الرسل والملوك، تح، محمد أبو الفضل إبراهيم، مصر، دار المعارف، ط4، ج4.

19-ابن عبد البر(يوسف بن عبدالله،ت463هـ/1070م): الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تح: عادل مرشد، الأردن، دار الأعلام، ط1، 2002م، رقم الترجمة:3356.

20-ابن عبد الحكم(عبد الرحمن بن عبد الله، ت257هـ/870م): سيرة عمر بن عبد العزيز، نسخها وصححها: أحمد عبيد، بيروت، د. د، ط5، 1967م.

21-ابن عبد ربه(أحمد بن محمد، ت 328هـ / 939م): العقد الفريد، تح: محمد سعيد العريان، المكتبة التجارية الكبرى، 1953م ،ج5.

22- أبو عبيد(القاسم بن سلام، ت224هـ/838م): الأموال، تح: محمد خليل هراس، القاهرة، مكتبة الكليات الأزهرية، 1981م.

23-الغزالي(محمد بن محمد، ت505هـ/1111م):إحياء علوم الدين، بيروت، دار القلم، 2005م،ج2.

24- ابن قتيبة(عبدالله بن مسلم،ت276هـ/889م): المعارف، تح، ثروت عكاشة، القاهرة، دار المعارف، ط2، د. ت.

25-القرطبي(يوسف بن عبدالله، ت463هـ/1070م): الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تح: محمد البجاوي، بيروت، دار الجبل، ط1، 1992م،ج2.

26- القرماني(أحمد بن يوسف، ت1019هـ/1610م): أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ، تح، أحمد حطيط، فهمي سعد، بيروت، عالم الكتب، ط1، 1992م ، ج2.

27- الكتبي(محمد بن شاكر، ت764هـ/1362م): فوات الوفيات، تح، إحسان عباس، بيروت، دار صادر، د. ط، د. ت ، ج2.

28- ابن كثير(إسماعيل بن عمر، ت 774هـ/ 1372م):البداية والنهاية، بيروت، مكتبة المعارف، ط2، 1990م، ج9.

29-الماوردي (أبي الحسن علي بن محمد، ت 450هـ/ 1058م): الأحكام السلطانية، تح: أحمد جاد، القاهرة، دار الحديث، 1427م.

30- المقدسي(شمس الدين محمد بن أحمد، ت375هـ/983م):أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، القاهرة، مكتبة مدبولي، ط3، 1991م.

31- المقريزي(أحمد بن علي المقريزي، ت 845هـ /1441م): النقود الإسلامية، تح : محمد السيد علي، النجف الأشرف، ط5.

32- ابن منظور (جمال الدين محمد، ت 711هـ /1311م): لسان العرب، بيروت، دار صادر، د. ط، 1997م، ج10.

33- النويري (شهاب الدين أحمد، ت733هـ/ 1332م) : نهاية الأرب في فنون الأدب، تح: علي محمد البجاوي، مصر، الهيئة المصرية العامة، 1976م، ج21.

34- النيسابوري(مسلم بن الحاج، ت261هـ/874م): صحيح مسلم، تح: محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1991م،ج1، رقم الحديث:78.

35-أبو الهلال العسكري(الحسن بن عبد الله، ت395هـ/1004م): الأوائل، تح، محمد السيد الوكيل، القاهرة، دار البشر للثقافة، ط2، 1985م.

36-اليعقوبي(أحمد بن يعقوب، ت292هـ/905م):البلدان، وضع حواشيه: محمد أمين ضناوي، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 2002م.

المراجع:

1- الأفغاني(سعيد):أسواق العرب في الجاهلية والإسلام، دمشق، د. د، ط2، 1960م.

2- جابر(سلسبيل): الرقابة على الأسواق من القرن الأول حتى نهاية القرن الثالث، كلية الإمام الكاظم(عليه السلام) للعلوم الإسلامية الجامعة،2019م.

3- الجفال(خليل إبراهيم): عبد الملك بن مروان الناقد الأديب ، بيروت، دار النضال، ط1، 1991م.

4- الحسيني(فاضل):آفاق الحضارة العربية الإسلامية، عمان، دار الشروق، ط1، 2006م.

5- حلاق(حسان علي): تعريب النقود والدواوين في العصر الأموي، دار الكتاب اللبناني والمصري، 1978م.

6- حويش(عمر حامد):أسواق العرب وأثرها في اللغة والأدب، بغداد، دار الجاحظ للطباعة والنشر، 1977م.

7- خريسات(صالح محمد): أسس ونظم الرقابة على الأسواق في الإسلام، رسالة ماجستير، القاهرة، المعهد العالي للدراسات الإسلامية، 1990م.

8- أبو خليل(شوقي): الحضارة العربية الإسلامية، بيروت، دار الفكر، دمشق، دار الفكر، ط1، 2002م.

9- ديمومبين(موريس):النظم الإسلامية، تر: صالح الشماع، فيصل السامر، بغداد، د. د، 1952م.

10- زيادة (نقولا):الحسبة والمحتسب في الإسلام، بيروت، المطبعة الكاثوليكية، 1962م.

11- زيود(محمود): نظام الحسبة في الإسلام، سوريا، مجلة دراسات تاريخية،1988م، ع29-30.

12- الكتاني(عبد الحي): التراتيب الإدارية، بيروت، دار إحياء التراث العربي، مج2، ص162-163.

13- أبو النصر(عمر): عبد الملك بن مروان ، بيروت، المكتبة الأهلية ، ط1، 1962م .

سبل معالجة الأزمات في الغرب الإسلامي

ما بين القرنين 6-8هـ/12-14م

الدكتور: بسام العلوش

كلية الآداب – جامعة البعث

ملخص البحث

نظراً لما تحدثه الأزمات من انهيارات اقتصادية ،وفواجع اجتماعية وانزياحات ديموغرافية، وإرباكات في هيكلية الدولة، التي ستؤثر سلباً في أفول الدول، فقد أولى المصلحون من حكام وسياسيين وأعيان ورجال دين، عناية جلية للتصدي للكوارث والأزمات وتخفيف معاناة المتضررين، من خلال وجود برامج إصلاحية تهدف لتوزيع الثروة وفق أسس عادلة بحيث تصل إلى كافة المنكوبين لأجل استمرار الدولة وبقاء المجتمع.

Abstract

Due to economic collapses, social tragedies, demographic displacements and confusions in the state structure, which will negatively affect the state's demise, the reformers, rulers, politicians, dignitaries and clerics, have given clear attention to dealing with disasters and crises and alleviating the suffering of those affected, through reform programmes aimed at distributing wealth on fair foundations to reach all those affected for the .continuation of the state and the survival of society

أهمية البحث:

تبيان مدى أهمية العلاقة بين الدولة والمجتمع من خلال إيجاد برنامج تكافلي يضمن الاستمرارية للصالح العام في ظل وجود الأزمات البشرية، والكوارث الطبيعية. والتركيز على المخزون الثقافي لإنسان المغرب والأندلس من خلال رصد أثر الموروث الديني، في بلورة ذهنيات وتمثلات ذات مناحٍ وتأويلات عديدة.

إشكالية البحث:

- أهمية وجود البرامج الاصلاحية، الرسمية والشعبية.
- العلاقة التكاتفية بين الدولة والمجتمع والمؤسسة الدينية في ظل الأزمات.
- التكافل الاجتماعي ودوره في رأب الصدع بالأسر الفقيرة.

لامراء أن التاريخ السياسي حظي بالنصيب الأوفر بالدراسات التاريخية في حين أغفل الجانب الحضاري والديموغرافي، لما فيه من اشكاليات في بطون المصادر ومتونها النصية. كانت سبباً في عزوف غالبية الباحثين عن العمل في ذلك الحقل التاريخي.

منهج البحث:

تم الاعتماد على المنهج الوصفي و الاستقرائي، ومن ثم تحليل الرؤى السوسيولوجية (الدينية)، كذلك الاعتماد على التحليل النفسي، لإنسان المغرب والأندلس مدار الحقبة المدروسة. لتبيان دور الضغوط الطبيعية، والممارسات البشرية، في السلوك والذهنية.

كلمات مفتاحية:

الأزمات، الكوارث، الحلول الرسمية، الحلول الدينية، الحلول الشعبية، التعاونيات.

مقدمة

تعد الكوارث الطبيعية ، من أهم أسباب الهبوط الاقتصادي ، والتدني الاجتماعي[1]، نظراً لما تسببه من أزمات ومجاعات تعصف بالحاصلات الزراعية، وتلحق بها أكبر الضرر، وهذا الضغط الاقتصادي الذي فرضه تحدي المناخ لم يتمثل في زيادة معدلات التصحر ، والجفاف فقط ، بل تمثل في التهديد بلقمة العيش (أمن الحياة) ، نتيجة لزيادة معدلات الطلب ونقص العرض ، مما أنتج ضغطاً اقتصادياً تسبب فيه عدم التوازن الاقتصادي ، فأثقل كاهل الدولة والمجتمع .

وقد أدت الطبيعة دوراً مهماً في حياة مجتمع الغرب الإسلامي ، فعاش في رهان مع الطبيعة ، بين الشح والعطاء ، حيث يأتي المطر في بعض السنوات مبكراً ومفاجئاً على غير ميعاده ، وهذا الخلل يعني امتثال الإنتاج الاقتصادي وفقاً لمعدلات الهطولات المطرية ، واستطاع أن يؤثر في البنية الاقتصادية ومصالح الناس .

ورافق هذا الخلل المطري ، حدوث الزلازل ، والأمراض والأوبئة [2]، وانتشار الجراد ، مما أدى إلى حدوث مجاعات ذهب ضحيتها آلاف الناس .

أضف إلى ذلك أنه جرّاء هذه الاكتساحات الطبيعية التي تعرضت لها مناطق دون أخرى ؛ كان الناس يجبرون على هجر مدنهم ومزارعهم ، ملتجئين إلى مناطق أخرى أكثر أمناً ، مما يشكل فقراً اقتصادياً نتيجة هجر المزارع ، وضغطاً اجتماعياً واقتصادياً ، على المدن المنزوح إليها ، بسبب النمو الديموغرافي المفاجئ ، وارتفاع نسبة البطالة ، فأدى ذلك إلى مشكلة الركود

---

[1] - أنظر حول ذلك ،

- مؤلف مجهول: تقييد في الأنواء وشهور السنة ، مخ ، خ.ع . الرباط ، ميكروفيلم ، رقم (2765د)، ص 320-321 .
- ابن هيدرو: الاعتبارات النظرية في الأحكام النجومية ، مخ . خ.ع . الرباط ، ميكروفيلم ، ضمن ، رقم (291د)، ص 236

[2] - ابن هيدرو: ماهية المرض الوبائي وتسمى أيضا الخطبة المكية في الأمراض الوقائية، مخ،خ.ح.الرباط، رقم(9605)، مخ، ورقة 2 .

التضخمي ، وعلى المستوى الاجتماعي خسارة عدد كبير من المهن والصنائع داخل المدن ، لهلاك عدد كبير من الصناع والحرفيين .

كما يؤدي القحط والجفاف إلى انخفاض في مستوى المياه الجوفية ، والتقليل من جريان المياه السطحية ، وهذه تؤثر بشكل مباشر في مستوى استثمار المياه ، فالأماكن التي يعتمد سكانها على الآبار نتيجة لاستغلالهم المياه الجوفية ، يصبح استغلالها لديهم ضعيفاً وذلك لانخفاض منسوب المياه وبالتالي تجف الآبار ، وكذا المياه السطحية، فانعدام الجريان أو انخفاض سرعة الانحدار ، يؤدي بطبيعة الحال إلى ضعف في استخدام الأرض والنواعير والسقايات ، خاصة مع اعتماد النشاط السكاني على هكذا موارد نظراً لانعدام أو قلة المشاريع المائية الضخمة التي تشرف عليها الدولة . ويبدو أن سنوات القحط كانت شديدة لدرجة تأثيرها في بنية الدولة ، وهيكلية المجتمع [1].

تعرضت بلاد الغرب الإسلامي كغيرها من بلدان العالم للعديد من الكوارث والجوائح ، الطبيعية والبشرية، من حقبة لأخرى، حيث شكلت خطراً هدد سقوط الدول، وأثر في استمرارية الوجود البشري ، مما أثر في سلوك الدولة، وذهنية المجتمع.

من الثابت أن الحروب والفتن والثورات ، تؤثر تأثيراً بالغاً في الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية ، كما أن اضطراب حالة أمن الدولة خصوصاً في أوقات ضعف سلطتها ، يؤدي غالباً إلى قلة الأقوات ، واضطراب الحياة وزعزعة الاقتصاد ، وانتشار حوادث السرقة والنهب والقتل والمشاجرات الدامية [2] .

كان للصراع الدائر بين القوى المتناحرة ، دور بارز في إحداث الخراب والدمار، إضافة إلى وجود حركات التمرد، علاوة على الغزوات الخارجية ، وما صاحبها من شلل للحياة الاقتصادية والاجتماعية ، فقد وصف ابن خلدون دخول – بني هلال - أفريقية سنة (443هـ/1051م) " كالجراد المنتشر لا يمرون بشيء إلا أتوا عليه " [3] .

---

[1] - الناصري: الاستقصا في أخبار دول المغرب الأقصى، إعداد، محمد المغراوي، منشورات وزارة الثقافة ، المغرب ، ط3، 2005م ، ج4،ق1/88 .

[2] - كمال السيد أبو مصطفى: محاضرات في تاريخ الغرب الإسلامي وحضارته المغرب والأندلس ، مركز الاسكندرية ، الأزرايطة ، 2007 م ، ص 342

[3] - ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون المسمى كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط3 1427هـ 2006م ،

وكان يرافق الاستعداد للحملات العسكرية اصطحاب المؤن وإعداد الأقوات مما يؤدي إلى ارتفاع الأسعار ، وقلة الطعام [1] . نتيجة زيادة حركة الطلب والعرض في السوق .

وكان لاستمرار الحروب لعدد من السنوات وقعه على كاهل المجتمع، عامتهم وخاصتهم ، نظراً لما يرافق ذلك من دمار متواصل وشلل في الحركة الاقتصادية [2].

كما شكلت الضرائب والأتاوات عاملاً مهماً في تدهور اقتصاد المجتمع وعرقلة حركته التطورية ، كما أنها تساهم في عدم إرساء قواعد الدولة وتصدع هيكليتها معاً [3]، الأمر الذي أدى إلى إهمال الحرف والصناعات [4].

أمام تلك المتغيرات الطبيعية، والضغوط البشرية، حاول المعنيون بالأمر إيجاد السبل والوسائل الكفيلة للحيلولة ما أمكن من رتق اقتصاد الدولة والمجتمع.

1- الحلول على المستوى الرسمي:

سعت الدول المركزية في عهود قوتها إلى إبراز الإجراءات القانونية ، ذات الصلة بمعاناة الإنسان ، التي تكثر إبان الكوارث الطبيعية ، وبموازة ذلك سعت أيضا إلى توفير حاجاتهم الملحة من إطعام وإنفاق وتفقد أحوالهم الحياتية.

فقد سعت السلطة المرابطية في بداية أمرها إلى إزالة المكوس ، والضرائب المثقلة كاهل الناس ، وشهدت أيامهم الرخاء والرفاهية ، بحيث "

ج6/18 . حول آثار الغزوة الاقتصادية ، انظر، Brett,(M) : Ifriqia as amarket for Saharan rtade from the tenth to twelth century A.D. journal of Africa history , vol.x(1960) p.346-347 .

[1] - حسن علي حسن: الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس عصر المرابطين والموحدين ، مكتبة الخانجي ، مصر ، ط1 1980م ، ص 256 .

[2] - ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب قسم الموحدين ، تح/ محمد إبراهيم الكتاني ، محمد زنيبر ، محمد بن تاديت ، عبد القادر زمامة ، دار الثقافة ، الدار البيضاء ، ط1 1406 هـ / 1985 م ، ص 16 .

[3] - سعيد سيد أحمد أبو زيد: الحياة الاجتماعية في الأندلس عصر دولتي المرابطين والموحدين القاهرة، مطبعة الخانجي،1996م،ص 64

[4] - Cherif (M) : contribution a l histoire de Geuta aux epoquens almohade et Merinide , these de doctorat de 3e Cycle , dactilographies , Universite , de Toulouse le Miail , 1987 , P . 191 .

تناهى سعر القمح ... إلى أن بيع أربعة أوسق بنصف مثقال ، والثمار ثمانية أوسق بنصف مثقال " [1].

ونظرا لما كانت تعانيه البلاد من نقص في مواردها المائية نتيجة للتقلبات المناخية، أعربت السلطة عن اهتمامها بمشاريع الري ، سواء في البلاد المغربية أو الأندلسية [2]. فقد اعتنوا بالصهاريج والأحواض المائية وأحاطوها بسياج من الأشجار للتقليل من نسبة التبخر [3]. كما قام علي بن يوسف بن تاشفين ببناء قنطرة عجيبة متقنة الصنع على نهر تانسيفت [4].

الأمر الذي يؤكد اهتمام المرابطين بتوسيع المساحات المسقية ، وذلك عن طريق توفير التقنيات ، للتخفيف من حدة الجفاف وخطر الفيضانات . كما سعى الأمير المرابطي نفسه ، إلى توظيف خبرات المعاهدين الذين قدموا من الأندلس في مدّ مراكش بالماء [5]، ويصف الإدريسي ذلك " وماؤها الذي تسقى به البساتين مستخرج بصنعة هندسية حسنة " [6].

ومما يؤكد اهتمام الحكام المرابطين بالعامة ، وجود برنامج إصلاحي هدفه خدمة الناس والحد من الجور والمعاناة ، وذلك بتفقد أحوال الرعية ، والنظر في سير الولاة و العمال ، حيث أن أمير المسلمين يوسف بن تاشفين كان " يتفقد أحوالهم وينظر إلى سير ولاتهم وعمالهم"[7]. وفي السياق ذاته سعى الأمير علي بن يوسف إلى إقامة العدل ، حيث كان يبعث برسائل التقريع إلى عماله ، ومن ذلك ما

---

[1]- ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك بني المغرب وتاريخ مدينة فاس ، مر/ عبد الوهاب بنمنصور ، المطبعة الملكية ، الرباط ، ط2، 1420هـ / 1990 م ، ص 210 .

[2]- سامية مصطفى مسعد: الحياة الاقتصادية والاجتماعية في إقليم غرناطة في عصري المرابطين والموحدين ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، ط1 ، 2003م ، ص 102 .

[3]- ابن عذارى: البيان المغرب، ص222 .

[4]- الحميري : محمد عبد المنعم الحميري ، الروض المعطار في خبر الأقطار ، تح/ إحسان عباس ، مكتبة لبنان ، بيروت ، ط2، 1984م ، ص 540 .

[5]- عز الدين عمر موسى: النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ط1424،2هـ/ 2003، ص 180 .

[6] - الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، 1414هـ / 1994م ، ج233/1 .

[7]- ابن أبي زرع:الأنيس المطرب ، ص 173 .

أرسله إلى أبي محمد عبدالله ابن فاطمة العامل على إشبيلية بتاريخ 510هـ/1116-1117م، " وارفع لدعوة المظلوم حجابك ولا تَسُدّ في وجه المضطهد بابك " [1].

وبالمقابل قامت الدولة الموحدية بتوفير المياه ، وذلك عن طريق ابتكار أساليب لم تكن موجودة من قبل [2]، وإحياء الطرق الرومانية القديمة [3]، وتطوير تقنيات استخراج المياه وجلبها من المناطق التي تتوفر عليه إلى المناطق المزروعة[4]، كما تكشف المصادر عن جر المياه للمدن إذ استفادت مدينة مكناس فجلبوا لها الماء من عين تاكما على بعد ستة أميال [5]. كما جرّ الخليفة عبد المؤمن الماء لسلا من الرباط بواسطة قنطرة مائية [6]. وفي سنة 545هـ/1150م، أصدر الخليفة الموحدي عبد المؤمن تعليماته بإجراء الماء من غبولة فشق سربا تحت الأرض إلى قصبة المهدية [7]. الأمر الذي أدى إلى توفير المياه لشرب الناس ، والخيل وسقي الأرض ، وما يدل على قيمة هذا المشروع أنه تحقق على مسافة تناهز "عشرين ميلا" [8].

علاوة على ذلك جلب الخليفة الموحدي يعقوب المنصور الماء لمدينة آسفي من الوادي الأخضر بتساوت ، وذلك عبر قناة غاية في الإتقان من الرحامنة ودكالة ، ويمتد طولها عشرات الأميال [9].

ونظرا لما عانه القطاع الفلاحي من نقص في الموارد المائية ، فقد انصبت جهود الموحدين على مساعدة الفلاحين المنكوبين ، وذلك لتمكين القطاع السقوي

---

[1]- محمود علي مكي: وثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين، مكتبة الثقافة الدينية، مصر، ط1، 1424هـ/2004م، ص 75 .

[2]- عز الدين موسى: النشاط ، ص 181 .

[3]- مؤلف مجهول: الاستبصار في عجائب الأمصار، نشر وتعليق سعد زغلول عبد الحميد، مطبعة جامعة الإسكندرية ، مصر، 1985م ، ص 137-138 .

[4]- محمد المنوني: حضار الموحدين ، دار طوبقال ، الدار البيضاء ، ط1، 1989، ص 169-170 .

[5]- ابن غازي: محمد غازي العثماني ، الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون ، تح/ عبد الوهاب بنمنصور ، المطبعة الملكية ، الرباط، ط3، 1420هـ / 1999م ، ص24 .

[6]- ابن غازي: الروض الهتون، ص 24 .

[7] - ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة ، تح/ عبد الهادي التازي ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ط3 ، 1987 ، ص358 .

[8]- مؤلف مجهول: الاستبصار في عجائب الأمصار ، نشر وتعليق سعد زغلول عبد الحميد ، مطبعة جامعة الإسكندرية ، مصر ، 1985م ، ص 140 .

[9]- الكاوني: آسفي وما إليه قديما وحديثا ، طبعة مصر، 1953، ص 172 . حول الآثار المتبقية لهذه القناة أنظر Allain(ch); Reconnaissances archeologiques dans le massif des Rehamn Bahira et la dans Hesp.1954.vol.11.P155-182.

من الاستمرار خلال فترات الجفاف ، حيث أقدموا على حفظ المياه في الآبار والصهاريج [1]. وكان أضخمها صهريج المنارة [2]. كما شيد يوسف بن عبد المؤمن بن علي عددا آخر في مدينة الرباط [3]. ونتيجة لما سببته الهجرات الريفية من تدهور اقتصادي ، فطنت الدولة الموحدوية إلى ذلك ، وعملوا على تشجيع الفلاحين للبقاء في أراضيهم ، فأمر الخليفة عبد المؤمن سكان القرى بالرجوع إلى مزارعهم قصد فلاحتها ، كما ونهيت الجيوش الموحدية عن تجنب الأراضي المزروعة أثناء تحركاتهم [4]. وفي المنحى ذاته أصدر الخليفة عبد المؤمن قانونا سنَّ فيه عقابا لكل من يلحق ضررا بالزرع [5]. وسعوا إلى تقديم المساعدات للمزارعين في أوقات المجاعات بحيث كانت تفرق " للقوي بأجر وللضعيف بلا ثمن " [6].

وأدرك حكام الموحدون الأوائل أن استقرار دولتهم يتوقف على الانتعاش الاقتصادي ، والتوازن الاجتماعي ، وذلك بتوافر الدولة على موارد مالية ضخمة . الأمر الذي دفع عبد المؤمن إلى اتخاذ قرار حاسم وذلك " بتكسير بلاد إفريقية والغرب وكسّرها من بلاد إفريقية من برقة إلى بلاد نول من السوس الأقصى بالفراسخ والأميال طولا وعرضا فأسقط من التكسير الثلث في الجبال والشعراء والأنهار والسباخ والطرقات والحزون ، وما بقي قسط عليه الخراج وألزم كل قبيلة قسطها من الزرع والورق " [7].

ونتيجة لثقل العامل الاقتصادي في حل أزمة المجتمع سعى الموحدون إلى إدخال البادية في اقتصاد السوق مثل تادلا ، و داي ، فكانت الدكاكين في داي كثيرة ومتخصصة " وعليها إقبال كبير حتى إن بعضها يضطر فيها الزبون إلى

---

[1] - مجهول: الاستبصار، ص 140 .

[2]- Deverdun(G); Marrakech des origins a 1912,et techniques Nord Africaines . Rabat.T.1.P.195.

[3]- سحر عبد العزيز سالم: مدينة الرباط في التاريخ الإسلامي منذ نشأتها حتى نهاية عصر بني مرين ، مؤسسة شباب الجامعة الإسكندرية ، ط1، 1966، ص 105 .

[4]- ابن القطان: نظم الجمان لترتيب ما سلف من أهل الزمان، تحقيق : محمود علي مكي ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 1990م ، ص 169 .

[5]- ابن القطان: نظم الجمان، ص 169 .

[6]- عز الدين موسى: النشاط ، ص 185 .

[7] - ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص260 .

انتظار دوره لقضاء حاجته هذه التجارة تشعبت وتعقدت حتى أصبح لها محتسب على غرار المدن الكبرى " [1].

وتشير النصوص إلى توالي الأعطيات الرسمية في ظل الكوارث الطبيعية ، فقد أدت الكوارث المتوالية على المغرب في عهد الخليفة عبد المؤمن إلى إحصاء عدد المنكوبين والمحرومين ، وذلك لمعرفة المتضررين وإمكانية توزيع الأعطيات بشكل يستفيد منه الجميع ، ففي سنة 566هـ/1171م، " تصدق أمير المؤمنين على الضعفاء والوافدين والغرباء ، وجاد عليهم بجوده كالسحابة الوطفاء " [2].

كما أن وجود، ولاية مخازن الطعام ، وسط المؤسسات الإدارية للدولة ينبأ بوجود نظام محكم يعني بالنكبات والكوارث ، و يؤكد أن الموضوع غير مغيب عن بال الدولة، ويدعم فرضية وجوده على أعلى المستويات الرسمية .

كان الإشراف على هذه الولاية يتم من قبل عمال المدن وولاة الأقاليم ، وأطلق على القائم بها " صاحب الطعام " [3]. أو " خازنه" [4].

ورغم أن الإشراف على هذه الولاية كان يتم من قبل العمال ، إلا أن المصادر تربط هذه الولاية بالسلطة العليا للبلاد ، فيذكر ابن عذارى أثناء حديثه عن حركة أمير المؤمنين الناصر الموحدي عبارة " مخازن السلطان " [5] ، وبنفس المعنى أورد ابن مرزوق أن السلطان أبا الحسن المريني كان " يخرج زرعه المختزن " [6].

ويؤكد ذلك أن صاحب هذه المهمة كان يعين من قبل السلطان نفسه ، حيث عين الخليفة المنصور الموحدي سنة 585هـ/1189م، " السيد أبو الحسن بن العم أبي حفص على تلمسان ، ومكنّ يده في المخازن بوجوه الإمكان " [7].

---

[1]- محمد حجاج الطويل: النشاط الاقتصادي في تادلا خلال العصر الوسيط ، سلسلة ندوات ومناظرات تادلا المجال الثقافة ، المملكة المغربية ، جامعة القاضي عياض ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، بني ملال ، 1992م ، ص 45 .

[2]- ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة، ص421 .

[3]- ابن عذارى: البيان، ص137 .

[4]- ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ج392/7.

[5]- ابن عذارى: البيان، ص259 .

[6]- ابن مرزوق: المسند الصحيح الحسن في مآثر مولانا أبي الحسن ، دراسة وتحقيق، ماريا خيسوس بيغيرا، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 1401هـ / 1981م ، ص 191.

[7]- ابن عذارى: البيان المغرب، ص201 .

ونظرا لأهمية هذه الولاية وإدراجها ضمن الأولويات ، لم تتوان أجهزة الدولة في إنزال أشد العقوبة بالمقصرين والعابثين بها ." وغدت حسبة الطعام من أهم دواوين الدولة " [1].

ومن ذلك أن الخليفة أبا يعقوب يوسف الموحدي تفقد المخازن سنة 579هـ/1183م، - وهو عام مسغبة – وذلك لتوزيع الطعام على المحتاجين . فثبت للمخزن تعرض بعضها للنهب من قبل عمالها ، والمشرفين عليها، فقام الخليفة بمحاسبة " سائر العمال وكان عددهم ثمانية عشر عاملا ... فاستأصل أموالهم ورد للمخزن ضياعهم ورباعهم " [2].

ومن الجرايات التي تحسب للخليفة الموحدي المنصور يعقوب بناؤه للبيمارستان في مراكش ، وذلك سنة 535هـ /1140م، حيث يعاين فيه المرضى بما أعد لهم من " المنازه والمياه والرياحين والأطعمة الشهية والأشربة المفوهة فتنعشه من حينه " [3].

كما سعى الخلفاء الموحدون إلى إقامة العدل بين الرعية [4]، فكان الخليفة أبو يوسف يعقوب المنصور يرسل كتبه إلى الولاة والعمال ، يأمرهم بإحقاق العدل وإنصاف الناس ، كما بدأ بحملة تفتيشية في مدينة اشبيلية ، وذلك سنة 593هـ/1196م ، بعد أن أكدت له الأخبار بظلم الولاة والعمال للرعية ، حيث " ابتدئ التحقيق مع أبي سليمان داوود بن أبي داوود ، وتولى الإشراف على محاسبة أبو محمد عبدالله بن يحيى وأبو عبدالله ابن الكاتب ، ووضع تحت تصرفهما خمسون كاتبا واستمرت عملية التحقيق ستة أشهر انتهت بإدانته فأغرم مبلغ مائة وخمسون ألفا، اتهم بضياعها من عمله ، كما أغرم مبلغا كبيرا من ماله الخاص " [5].

نظرا لتوالي سنوات الجفاف والكوارث في العصر المريني ، وخاصة في الربع الأول من القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي، فقد وقف الخلفاء

---

[1]- عز الدين موسى : النشاط ، ص185 .

[2]- ابن عذارى: البيان، ص 158 .

[3]- الحميري: الروض المعطار، ص541 .

[4]- حول جلوس الخليفة للمظالم ، انظر ، القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، شرحه وعلق عليه وقابل نصوصه ، محمد حسن شمس الدين ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، (د.ت)، مجلد140/5 .

[5]- مراجع عقيلة الفناوي: سقوط دولة الموحدين ، منشورات جامعة قار يونس ، بنغازي ، 1409هـ/1988م، ص 241 .

بحزم تجاه هذه النكبات ، وحاولوا ما أمكن للتخفيف عن كاهل الناس ، وعدم تثقيلهم بما لا يطيقون . فقد عانى المجتمع خلال مجاعة (724-725هـ) اثقالات مادية نتيجة لغلاء أسعار القمح ، بسبب استفحال المجاعة . فما كان من السلطان أبو سعيد عثمان (709-731هـ/1309-1331م) إلا أن عبأ جهود الدولة لمساعدة المنكوبين ، حيث أمر أن يباع مدّ القمح بأربعة دراهم بدلا من خمسة عشر درهما [1].

ويبين النص التالي لابن أبي زرع الأثر العميق الذي خلفته الكوارث المذكورة على المجتمع ، وخاصة طبقة العوام ، كما يشي بوجود برنامج تضامني على أعلى المستويات الحكومية ، بهدف الحفاظ على الانفراج الاقتصادي والتوازن الاجتماعي، ولهذا " أمر بالصدقات فلم يزل يفرقها بطول الشدة ، يفرقها الثقات على حارات المدينة فيعطونها أهل الستر والبيوتات ، وذوي الفاقات والحاجات ، كل على قدر حاله وضعفه ، فكانوا يأخذونها من دينار ذهبا إلى ربع دينار " [2].

وفي أثناء حصار الجزيرة الخضراء أمر السلطان أبو الحسن ببيع الزرع المختزن بنفس سعره قبل مدة الحصار ، كما وجدت في فاس مخازن حكومية تشتمل على مطامير أعدت للغلال [3].

ويؤكد نص ابن مرزوق من جديد وجود برنامج رسمي لمكافحة الكوارث الطبيعية التي عصفت بالمغرب زمن حكم السلطان أبي الحسن المريني ، (731-794هـ/1340-1348م) ، " وكم من سنة مسنهة عال فيها إمامنا - رضي الله عنه – محاويج أهل بلاد المغرب عموما ، يخرج زرعه المختزن الخاص به ، فيقيم به أود المحاويج عموما في كل ليلة بطول الجدب "[4].

وبنفس الوتيرة كان السلطان أبو عنان (749-759هـ/1348-1358م) "فكان يطعم الطعام بين يديه ويتولى القيام عليهم بنفسه ويلزم قواد قصب البلاد بذلك طول الجدب " [5].

---

[1]- ابن أبي زرع: الأنيس المطرب ، ص 530 .

[2]- ابن أبي زرع: الأنيس المطرب ، ص 530 .

[3]- محمد المنوني: نظم الدولة المرينية ، مجلة البحث العلمي ، جامعة محمد الخامس ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، الرباط ، العدد 4-5،السنة الثانية ، (1385هـ/1965م)، ص 252 .

[4]- ابن مرزوق: المسند ، ص 191 .

[5]- ابن أبي زرع: الأنيس المطرب ، ص 529 .

كما اهتم المرينيون بتنظيم المياه وتزويد المدن بها ، وذلك عن طريق حفر الأودية ، ومدّ الأنابيب ، فكان لمكناس شبكة مياه طبيعية كالعيون والأودية التي جلبت مياهها من طرق القنوات على مسافة خمسة كيلو مترات من المدينة فتسقى بها الدور والمساجد والفنادق ، وتميزت فاس بشبكة متقنة من المياه فكانت تسقى من وادي الجواهر (وادي فاس) ، بينما تسقى فاس الجديدة من عين عمير[1]. وبالمثل شيدوا سداً في وادي بوطوبة بفاس للتحكم في تنظيم المياه ، إلى جانب اهتمامهم بجر قنوات المياه، ومدّ أنابيب فخارية لصيانة جداوله عبر مسافات طويلة [2].

وشهدت هذه الحقبة استعمال النواعير على نطاق واسع ، فكان نهر سوس مثلا يسقي تارودانت بواسطة قنوات ونواعير تجذب الماء لري الحقول والبساتين [3]، وكانت النواعير من الضخامة ، فكانت ناعورة قصر فاس الجدية يبلغ قطرها 26 مترا ، وتتولى نواعير فاس رفع الماء من النهر ثم تلقي به في قنوات تمتد على سور المدينة ، فتسقى منه القصور والمساجد والبساتين [4].

كما شهد العصر المريني ظاهرة واسعة في المبرات والخيرات على أيدي الحكام ، ويعد عهدي السلطان أبو الحسن المريني وابنه أبو عنان من ألمع العهود المرينية ، لما أوثر عنهم من الصدقات والمساعدة للفقراء والمنكوبين . فقد قام السلطان أبو الحسن المريني بإنشاء العديد من المدارس المختلفة سواء منها في بلاد المغرب الأقصى ، أو الأوسط ، كمدرسة الحسنة في تازى ، وفي مكناسة وسلا وسبتة وطنجة ، ووضع لها الأحباس ، وأجرى على الطلبة المرتبات ، والمعونات ، علاوة على تحبيسه لبعض الكتب النفيسة [5].

ووضع السلطان للأيتام محرث زوجين ومجباهما في كل وطن للاستغناء عن حاجة الناس وعالتهم ، وفي كل عاشوراء من كل سنة كان يأمر بجمع الأولاد

---

[1]- إبراهيم حركات: الحياة الاقتصادية في العصر المريني ، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، جامعة محمد الخامس، الرباط ، العدد 3-4 ، 1978، ص133 .

[2]- الجزنائي: أبو الحسن علي (ت ق 8هـ)، جنى زهرة الآس في بناء مدينة فاس، المطبعة الملكية، الرباط ،196م، ص 78 .

[3]- إبراهيم حركات: الحياة الاقتصادية، ص 132 .

[4]- حول الناعورة بفاس أنظر ، ابن الخطيب: معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار ، تح/ محمد كمال شبانة ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، 1423هـ/ 2002م ، ص 176 .

[5]- ابن مرزوق: المسند، ص405-407 .

الفقراء ويقوم بختانخهن ويكسوه قميصا " ويعطي كل واحد عشرة دنانير وما يكفيه من الطعام " [1].

كما فطن السلطان أبي الحسن إلى ضرورة الاهتمام بطرق المسافرين والقوافل التجارية فأمر بتعميرها من قبل السكان وأن يجري لهم إقطاع من الأرض يلتزمون فيها ببيع ما يحتاجه المسافر [2].

وعلى نفس النهج التضامني سار خلفه السلطان أبي عنان فقد أجرى " الصدقات على المساكين بكل بلد من بلاده على الدوام ومنها كسوة المساكين والضعفاء والعجائز والمشايخ.." [3].

إن مثل هذا النص على الرغم من المبالغة فيه ، لكنه يؤكد تضامن الحكام مع المجتمع ، وسعيهم الدؤوب إلى إصلاح البنية الاجتماعية المخلخلة .

وإلى جانب هذه الحلول الوقائية، سعى الحكام المرينيون إلى مساعدة المرضى والتخفيف عنهم ، وذلك من خلال بناء البيمارستانات وتقديم الأدوية والعلاج بالمجان ، ليستفيد منه أكبر قدر ممكن من أصحاب الأمراض والعاهات[4]. وكان المهتمون الرئيسيون بهذه المبرات ثلاثة وهم السلطان يعقوب بن عبد الحق ، حيث بنى البيمارستان للمرضى والمجانين ، ورتب الأطباء بتفقد أحوالهم ، وأجرى عليهم المرتبات والنفقات ، كما أجرى على الجذامة والفقراء مالا معلوما يأخذونه من جزية اليهود [5].

وقد جدد السلطان أبو الحسن هذا البيمارستان وأجرى عليه جرايات كثيرة ، وهو الشيء نفسه الذي فعله السلطان أبو عنان ، حيث أجرى الأوقاف الكثيرة لمؤن المرضى ، وعين الأطباء لمعالجتهم والتصرف في مطالبهم [6].

---

[1]- ابن مرزوق: المسند، ص 420 .

[2] - المصابن مرزوق: المسند، ص 429 .

[3]- ابن بطوطة: أبو عبدالله محمد إبراهيم اللواتي (779هـ)، رحلة ابن بطوطة ، دار صادر ، بيروت ، 1384هـ/1946م، ص 663 .

[4]- حول حقوق المرضى والجذامى في أوروبة في الحقبة الوسيطة وخاصة قي فرنسا ، أنظر. Vovell(Michel);La mort et l occident de anons jours, editions Callimard et Panth eons,Paris 1983,P.101.

[5] - مؤلف مجهول: مفاخر البربر ، دراسة وتحقيق ، عبد القادر بوباية ، دار أبي رقراق، القاهرة ، ط1، 2005م ، ص 45 .

[6]- مجموعة من الباحثين: مذكرات من التراث المغربي ، ص 72 .

أما مشفى سيدي فرج الذي يعزى بناؤه إلى السلطان يوسف بن يعقوب عام 685هـ/1286م ، فقد أوقف عليه أوقاف كثيرة زادت هذه الأوقاف في عهد السلطان أبو عنان ، وإضافة إلى هذه المهمة الإنسانية للمشفى فقد كان ملجأ لمعالجة طيور اللقلاق ، فكانت تصرف جرايات لمن يضمده ويطعمه [1]. ما يعني أن مثل هذه الأعمال فتحت المجال لمحاربة البطالة ، وتوظيف اكبر قدر ممكن من الناس .

من كل ما سبق يتبين : إن التضامن الرسمي خلال الحقبة المعنية بالدراسة كان قائما على عدة مراحل ، ما يؤيد وجود برنامج تكافلي على أعلى المستويات، هدفه رأب الصدع داخل البنية الاجتماعية .

كما يشير إلى وعي السلطة الحاكمة للآثار المترتبة على الهزات السوسيو اقتصادية ، لذا دأب الحكام – خلال الحقبة مدار البحث – إلى إيجاد صيغ وحلول تضمن ما أمكن تسوية الأوضاع المعيشية للمنكوبين ، وذلك من إخلال إعانتهم ماديا ومعنويا . وتمثلت بعدة عوامل كالصدقات والمبرات على الفقراء من خلال كسوتهم وإطعامهم ومدهم بالمال، ومحاربة البطالة، والتي تؤدي بأصحابها أحيانا للسرقة والنهب والتسول ، وتوظيف أكبر قدر من الناس للقضاء على البطالة ، ومحاولة محو الأمية من صفوف العامة ، وذلك بتقديم الكتب بالمجان . وتجلى ذلك أيضا بتقديم الأدوية والعلاج بالمجان للفئات المستضعفة .

الأمر الذي يعني أن هذه المساعدات ساهمت وإلى حد بعيد في إيجاد حلول مكنت طبقة العوام ، من إعادة تركيبتها السوسيو اقتصادية ، والانخراط داخل المجتمع كإحدى فئاته الأساسية .

2- الحلول على المستوى الشعبي (تكافل المجتمع)

خلفت المجاعات آثارا اقتصادية واجتماعية ، ونفسية سيئة ـ تركت بصماتها بوضوح في ذاكرة الناس . فتوصلوا إلى اتخاذ إجراءات وقائية واحتياطات احترازية ، لمواجهة الأخطار المستفحلة . فعلى سبيل المثال كان لمجاعة 637هـ/1239م، التي نزلت بأهالي سبتة ، سلوك واضح لدى أهاليها

[1]- مجموعة من الباحثين :مذكرات من التراث ، ص 73 .

فصاروا " يختزنون الطعام في المطامير في كل عام حيطة على أنفسهم من مثل هذه المجاعة التي لم يعهد لها مثيل في الأعوام الفارطة قبلها " [1].

وأشار ابن خلدون إلى تنافس سكان فاس في خزن ما يكفيهم من المؤن " حتى إن الرجل منهم ليدخر قوت سنتين من حبوب الحنطة ، ويباكر إلى الأسواق لشراء قوته ليومه مخافة أن يزرأ شيئا من مدخره" [2].

ويظهر أن الخوف من المجهول دفع الناس إلى استخدام المرافق العامة ، وأماكن التدريس ، فقد سئل الفقيه العبدوسي عمن عمد إلى اقتحام المدارس وقام بتحويلها كمستودعات للحبوب [3]. في حين قام البعض باتخاذ أفنية دور العبادة (المساجد) مخازن للحبوب [4].

ويبدو أن ما علق في أذهان العامة من أضرار نجمت عن الكوارث الطبيعية ، دفعت البعض إلى سلوكيات غريبة ، كاتخاذ المراحيض بيوتا لخزن الحبوب والأطعمة ، حيث سئل الفقيه البرجيني عن رجل قام باحتلال " قصبة الحبس أسفلها مرحاض فاتخذها... للخزين" [5].

دأب الناس في مجتمع الغرب الإسلامي الوسيط ، ضمن رهانهم الدائم مع التحولات المناخية إلى تلبية حاجاتهم من المياه ، وذلك إما عن طريق حفر الآبار أو بناء السدود ، أو مدّ السواقي أو إقامة الصهاريج . حيث قام المراكشيون بتخزين مياه الأنهار مثل (نهر نفيس و تانسيفت) في صهاريج كبيرة كانت تدعى " البرك " [6]،وهي خزانات كبيرة لتجمع " ماء سيول الأنهار " [7].

ومنها أيضا الصهريج الكبير الذي وصفه العمري قائلا : " والصهريج في لغة أهل المغرب البركة ، وهب بركة عظيمة عليها سور وباب يصب فيها النهر .. الداخل إلى مراكش ، وفيها يوزع بقياس معلوم على قصور الناس ثم ينحدر

---

[1] - ابن عذارى: البيان المغرب، ص 334 .

[2] - ابن خلدون: مقدمة ابن خلدون، ص93 .

[3]- الونشريسي: المعيار المعرب والجامع المغرب في فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب ،خرجه ، جماعة من الفقهاء بإشراف محمد حجي ، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ، المملكة المغربية ، 1401هـ / 1981م ، ج262/7 .

[4]- الونشريسي: المعيار، ج330/7 .

[5]- الونشريسي: المعيار ، ج231/7 .

[6] - السملالي: الاعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام، تقديم، عبدالوهاب ابن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، 1413هـ/1993م، ج131/1.

[7] - السملالي: الاعلام، ج1/ 131.

بقية الماء وفي نهر يشق المدينة من جهة أخرى في وسط الأسواق .. وفيها برك تصب فيها المياه " [1].

وتشي النصوص بوجود المحسنين الذين قدموا ماء الساقية هبة لمن يحتاج [2]. وشهد المجتمع مدار البحث ظاهرة وقوف المحسنين إلى جانب الفقراء والمنكوبين . حيث تشير النصوص أن المساعدات المالية طالت فئات كثيرة من الناس ، فقد وقفت الشخصيات المرموقة " من أكابر التجار وذوي الأموال الطائلة " إلى جانب المنكوبين ممن عصفت بهم الكوارث والأوبئة [3].

وكان للصدقة أبعادا أخرى فكثيرا ما ساهمت في القضاء على البطالة ، وإيواء المشردين ممن لا مسكن لهم [4].

وساهمت الوصايا المقدمة من قبل البعض في رأب الصدع داخل المجتمع ، كوصية البعض بإخراج المال لفقراء بلده [5]. ووصية الشخص بإخراج الخبز وتوزيعه على المحتاجين لمدة سبعة أيام من وفاته [6]. كما أن البعض كان يوصي عند سفره بإخراج ثلث ماله للفقراء [7].

وشملت المساهمات الفردية علاج الفقراء بالمجان " حيث كان قاضي إشبيلية علي بن أحمد الزهري يواسي المرضى " ويصف لهم الأدوية ويعالجهم بالمجان " [8].

3- الحلول على المستوى الديني [1]:

[1]- العمري: ابن فضل الله العمري (ت 749هـ)، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق مصطفى أبو ضيف أحمد، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1988م ، ص 133-134 . كما ابتكر الأندلسيون طرقا جديدة كنظام وكالة الساقية وذلك لاستغلال المياه بطريقة تكفل التوزيع المتماثل . Dufourcq;La vie quotedienne dans L Euroupe sous La domination arab,Paris1978,P.94.

[2]- الونشريسي: المعيار، ج8/41-42.

[3]- الونشريسي: المعيار، ج6/6 .

[4]- اللونشريسي: المعيار، ج8/65 .

[5] - البرزلي: فتاوى البرزلي، تقديم وتحقيق ، محمد الحبيب الهيلة ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ط1، 2002م ، ج5/589 .

[6]- البرزلي: فتاوى: ج5/593 .

[7]- البرزلي: فتاوى: ج5/593 .

[8]- محمد الرشيد ملين: عصر المنصور الموحدي ، مطبعة الشمال الإفريقي ،(د.ت) ، ص 223 .

أبانت الكوارث والجوائح، ردات فعل داخل المجتمع ، مدار البحث ، تركت آثارا سلبية ساهمت في تمزيق الروابط الأسرية ، وتعرية العلاقات الاجتماعية .

فظهرت صيحات الزهاد والمصلحين آنذاك طلبا للتوازنات الحياتية [2]، لذا فقد جاء الرد سريعا من قبل شريحة من الناس الذي تبنوا هذا الجانب . بحيث شهد المجتمع تكافلا اجتماعيا واسعا ، حاولت فيه تلك الأطياف الحدّ من المشاحنات والأزمات الاجتماعية ، والتي كانت وليدة ظواهر طبيعية، وبشرية، انسحبت في المجتمع برمته .

4- المتصوفة :

أفرزت الكوارث فئات طفيلية كانت تبحث عن الإثراء السريع ، ولا تتورع في استغلال الآخرين ، والكسب غير المشروع ، غير آبهة للأخلاق ولا للدين . فنشأ عن ذلك فوارق طبقية ، ازدادت معها حالة العامة سوءا وظلما . وفي المقابل برزت ظاهرة التصوف ، والتي كانت بمثابة ملجأ يقصده المحرومون والمهمشون .

اتخذ التصوف في المغرب الإسلامي، سبيلا واضحا إلى جميع مرافق الحياة ، واستطاع أن يستقطب الاهتمامات الفكرية ضمن الوسط الاجتماعي ، وأن ينسحب على طبقات الشعب ، بمستوى ملك معه زمام المبادرة في صوغ قوانين الحياة الاجتماعية ، والسياسية [3].

ومرد ذلك ما اكتسبه المتصوفة أنفسهم من صفات أخلاقية ، وخوارق غير طبيعية ، ملكوا من خلالها قلوب الناس واستقطبوا بها عقولهم .

اتخذ المتصوفة من الفقر رداءاً ، وسترا لهم ، وكانت لهم في ذلك أقوال متعددة ، فقد ورد عن أحدهم انه كان يقول : " الفقر لباس الأحرار " [4]. وقالوا : "

---

[1]- نقصد بذلك المتصوفة، لأنها الجهة العليا التي تظهر أوقات الأزمات، الكفيلة برأب الصدع وإعادة هيكلية المجتمع، وفق ما تقتضيه المصلحة العامة.

[2]- أبو اليزيد العجمي : الزهاد والمسلمون ومجالات العمل الإسلامي ، مجلة المسلم المعاصر ، إصدار مؤسسة المسلم المعاصر ، بيروت ، العدد 33، 1403هـ/1983م ، ص 71 .

[3] - حبيب القيسي: نظرات في بعض ملامح العامة للحياة الروحية والفكرية في المغرب ، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، مطبعة المعارف ، بغداد، العدد 16 ، 1973م، ص 8 .

[4]- السلمي: طبقات الصوفية ، تح/ مصطفى عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط1429،1هـ/1998م،ص 315

الفقير الصادق الذي يملك كل شيء ولا يملكه شيء " [1]. ودعوا للتخلي عن الثروة والمال ، ووصفوه بعدة أوصاف مثل " أوساخ الناس" [2]، و" الشياطين " [3]، وتمنعوا عن مدَ اليد للناس ، فكانوا يتعففون عن أموال البشر [4]. ومن ميزاتهم أنهم " يشفقون على يتامى المسلمين ، ويطعمون المسكين ، ويفرجون كروب المعسرين " [5]. كما أوثرت عنهم " كرامات وفضل " [6]. بحيث أن النصوص لا تكاد تذكر أخبار أحدهم إلا وتصف كراماتهم الخارقة [7].

وكان سعي رجال الإصلاح إلى أعمق من ذلك ، بحيث أنهم دأبوا على تأسيس شبكة من العلاقات الإنسانية المتكافلة تحت مؤثرات دينية ، تدعمها كرامات الأولياء، ما زاد من نفوذهم وهم أموات ، لذا فقد أشارت المصادر للتبرك بهم ، ومن ذلك أن أبي يعلى الهزرجي لما توفي تفاتنت القبائل عليه " فكل قبيلة قالت إنما ندفنه عندنا لننال بركته " [8]. كما أن جنازة أحدهم كانت تشهد تزاحما من قبل الناس والسلاطين[9]، وغالبا ما تشهد الجنازة أياماً خيرة كهطول المطر [10].

وتواتر في كتب المناقب " أن ثلاثة من صلحاء المغرب وقع بهم النفع عند الممات وهم الشيخ أبو يعزى، والشيخ أبو العباس السبتي وأبو مدين " [11].

---

[1]- السلمي: طبقات، ص 378 .

[2] - ابن الزيات التادلي: التشوف إلى رجال التصوف ، تح/ أحمد التوفيق، طبعة البيضاء 1984م، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، الرباط ، ص 247 .

[3]- ابن الزيات : التشوف، ص 247 .

[4] - أبي عمرو عثمان: المقتضب من كتاب سمط الجمان وسقط الأذهان ، تعليق ، حياة قارة ، 1423هـ/2002م، ص 120 .

[5]- البادسي: المقصد الشريف والمنزع اللطيف في التعريف بصلحاء الريف ، تح/أحمد سعيد أعراب ، الطبعة الملكية ، الرباط ، 1420هـ/1982م، ص 21 .

[6]- العسقلاني: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة (الذيل) ، تحقيق وتعليق ، أحمد فريد الزيدي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، (د.ت) ، ص 130 .

[7]- العسقلاني: الدرر، ص 22،46،39.

[8]- ابن الزيات: التادلي، ص225 .

[9]- محمد بن عسكر الشفشاوني : دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر ، تح/ محمد حجي ، مراجعة عبد المجيد خيالي ، منشورات مركز التراث الثقافي المغربي ، الدار البيضاء ، ط3، 1424هـ/2003م، ص 126 .

[10]- ابن الأبار: الحلة السيراء، تح ، عبد السلام الهراش ، دار المعرفة ، الدار البيضاء ، (د.ت) ، ص 126.

[11]- كنون: الدر المنظوم في نصرة القطب المكنون ، مخ ، خ.ع ، الرباط ، ميكروفيلم ، ضمن مجموع ، رقم (1991د)، ص 38 .

برزت فلسفات خاصة للمتصوفة ، هدفها إشاعة الأمان وتحقيق التكافل الاجتماعي وإزالة التمايز الطبقي ، فسعوا إلى إبراز دور الصدقة كعلاج يخفف حرمان الفقراء ، إذ عانى فقراء فاس في إحدى السنوات العجاف من ضنك العيش ، فأخرج علي بن خلف بن غالب (ت568هـ) على ما صار له من تركة أبيه وقدرها " اثني عشر ألف دينار فتصدق بها كلها " [1].

ولما كان عام المجاعة بالمغرب سنة 591هـ ، قام الولي أبو عمران (ت592هـ) بالتصدق بجميع ماله على الفقراء والمساكين ، وأولاده في ضيق شديد[2].

وكان الشيخ محمد بن موسى الحلفاوي الاشبيلي (ت758هـ) معاصرا للطاعون الأسود الذي اجتاح العدوتين " فتكلفت صدقته بجميع مؤن المحتاج من قوت ومن لباس مستوفي الجزئيات في الدفعة الواحدة فيكفيه السؤال طويل مدة " [3]. بمعنى أن كل واحد من المتصوفة أضحى له فلسفة خاصة ، في الصدقة والإنفاق على المعسرين .

وكان لأبي العباس قدرته الغريبة في مساعدة الناس ، ففي إحدى سنوات الشتاء بقي يشعر بالبرد ، رغم ما ألقي عليه من الأغطية ، وذلك لأن إحدى العائلات كانت تعاني من ألم البرد ، ولا تجد إلى ذلك سبيلا ، فأمر بإعطائها اللحف والأغطية لمساعدتهم على قضاء فصل الشتاء [4] .

لم يدخر المتصوفة جهدا في محاولة التخفيف عن الفقراء بشتى السبل ، حتى وإن كان ذلك عن طريق الرؤى والأحلام [5].

والظاهر أن ما تعرض له الناس جرّاء ما نابهم من مصائب في أيام المسغبات كالمجاعات واحتباس المطر ، وظهور الجراد ، وانتشار الوباء دفعهم للالتجاء إلى المتصوفة التماسا لبركتهم وكراماتهم . وفي المقابل تحدثنا النصوص عن عادة خروج الفقهاء وتكافلهم مع المجتمع لمحاربة تلك الظواهر ، ومساندة أفراد المجتمع المنكوبين .

---

[1]- التليدي: المطرب بمشاهير أولياء المغرب ، دار الأمان ، المغرب ، ط1421،3هـ/2000م،ص 47 .

[2]- ابن الزيات: التشوف، ص 113،298.

[3]- الحضرمي : أبو عبد الله محمد بن أبي بكر، كتاب السلسل العذب والمنهل الأحلى، تح/ مصطفى النجار، منشورات الخزانة العلمية الصبيحية، سلا، مطابع سلا، (د.ت) ، ص 51.

[4]- ابن الزيات: التشوف، ص466 .

[5]- إبراهيم القادري بوتشيش: حلقات مفقودة من تاريخ الحضارة في الغرب الإسلامي ، دار الطليعة ، بيروت ، ط1 2006م، ص 119 .

ومن ذلك ما تشكى به أهالي تونس من ضرر أصابهم نتيجة هجوم الجراد على مزروعاتهم ، فالتجؤوا إلى الفقيه أبو عبدالله الهواري ، فما كان منه إلا أن قلبها ونظر إلى بطنها ورماها بالأرض ، فلم يحن آخر اليوم حتى لم يبق جرادة واحدة [1].

وتجلت المساعدات أيضا في التخفيف عن المزارعين في تغيير مجرى اتجاه الريح ، وذلك أن أبو العباس السبتي ، خرج ذات مرة إلى بستان خارج باب دكالة ، فشكا إليه أحد العمال الضرر الذي لحق الفلاحين بسبب الريح الشرقية ، وطلب مساعدته لتصير الريح غربية ، فما كان من الولي إلا أن " فكر ساعة ثم قال استنشقوا الريح .. فإذا هي غربية " [2].

إن مثل هذه النصوص تعكس بعمق مكانة الولي ، والحالة النفسية التي وصل إليها الناس ، بحيث أنهم وجدوا ملاذهم ومستغاثهم في هذه الطبقة التي حاولت ما أمكن إسعاد المحرومين ،وتخفيف الظلم عنهم ، نتيجة ما تعرضوا له من انتكاسات ، كونهم الحلقة الأضعف في تركيبة المجتمع . فقد اضطرت امرأة في إحدى المجاعات إلى بيع دارها وأوكلت الدلال في ذلك فقام الدلال وعرض الدار على الولي أبو العباس الهواري (ت قبل 540هـ) وذكر له أن المرأة اضطرت إلى بيع الدار بسبب الحاجة ، ومعها في الدار بناتها ، ولولا الحاجة لما اضطرت لذلك ، فخرج الولي وبعث للمرأة بخمسمائة دينار لتسد بها فاقتها وفقرها [3].

ونظرا لأهمية الدقيق ومركزيته الاقتصادية في حياة المجتمعات ، فقد صورت كتب المناقب إمداد المتصوفة للناس بالدقيق، والبركة فيه . ومن ذلك ما شهد به محمد بن ويحلان خادم الولي أبو زيد الهزميري(ت 707هـ) وذلك حين عصفت بفاس المجاعة الشديدة سنة 673هـ ، قال : " فأتيت بحمل من دقيق من دار الشيخ في شهر جب ، فقال لي : اجعله في خابية ... فأدخل يده في الدقيق ثم أخرجها،وقال لي إياك أن يراه أحد غيرك أو يأخذ منه شيئا ، فكان الناس يأتون

[1] - ابن الزيات: التشوف، ص180-181.
[2]- ابن الزيات: التشوف، ص 474 .
[3]- ابن الزيات: التشوف، ص153 .

بالجموع الكثيرة من المائة إلى المائة والخمسين ونحو ذلك ، فما زلت أنفق منه إلى أن دخل المحرم " [1].

وما يظهر أهمية الإطعام في وقت المجاعات ، وانعدام الأقوات ، ما شاهده أبو الحسن الشاذلي (ت628هـ) من ضنك العيش لدى دخوله مدينة تونس " فوجدت بها مجاعة شديدة والناس يموتون جوعا في الأسواق ، فأشفقت على خلق الله فأتيت خبازا فقلت له عدَّ خبزك ، فعده عليّ فناولته للناس فتناهبوه ... فأعطيته برنسي وكرزيتي رهنا في ثمن الخبز " [2].إن مثل هذا النص يعكس تمزق العلاقات الاجتماعية بين الناس ، ووقوف المتصوفة إلى جانبهم رغم عدم امتلاكهم للمال .

ونظرا لما أصاب البلاد ، مدار البحث ، من سنوات محل وقحط ، لقلة الهطولات المطرية ، وللضرر الحاصل على الحياة الاجتماعية والاقتصادية ، ونتيجة عدم كفاية المشروعات المائية من قبل الدولة . لجأت العامة إلى المتصوفة لالتماس بركتهم وكراماتهم في الحصول على المياه .

فقد أصاب أهالي نفيس جدب فذهبوا إلى الفقيه واجاج بن زللو اللمطي للاستسقاء فأضافهم ثلاثة أيام " فلما عزموا على الانصراف وجاؤوه ليودعوه .. قال إياكم أن ترجعوا من طريقكم الأولى التي أتيتم فيها ... لتسكنوا في الغيران والكهوف من الأمطار ودامت عليهم الأمطار فلم يصلوا إلى بلادهم إلا بعد ستة أشهر " [3].

كما استسقى الفقيه أبو العباس أحمد بن محمد بن عبدالله لأهالي سجلماسة ، ولم يكن ذلك موعد المطر ، وصعد المنبر يوم الجمعة خطيبا ، ولم ينزل عنه " حتى سقي الناس" [4]. الأمر الذي يعكس سرعة المتصوفة على استجابة الدعوة [5].

ويعكس نص الشيخ ابن مشيش – التالي- تأكيد المتصوفة على ضرورة التكافل الاجتماعي ، والتضامن مع الممحلين بغض النظر عن الأسباب ، لذلك فإن العطاءات الروحانية كانت عميقة الأثر في نفوس العامة . فقبيل العقد الثاني من

---

[1]- ابن عيشون الشراط: الروض العاطر بأخبار الصالحين من أهل فاس ، دراسة وتحقيق زهراء النظام ، مطبعة النجاح الجديدة ، الدار البيضاء ، 1997م، ص 218 .

[2]- مؤلف مجهول: مناقب الشيخ الكامل والقطب الجامع سيدي عبد السلام مشيش ، مخ ، خ.ع. الرباط ، ميكروفيلم ، ضمن مجموع رقم (1484د) ، ص 245-246 .

[3]- ابن الزيات: التشوف، ص 89-90 .

[4]- ابن الزيات: التشوف، ص 140-141.

[5]- أنظر حول ذلك ، ابن قنفذ أنس الفقير وعز الحقير اعتنى بنشره وتصحيحه محمد الفاسي أدولف فور ، المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط ، 1956م ، ص 8 .

القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي ، كان أهل فاس يستسقون مع أميرهم لما أصابهم من الغلاء المفرط ، والمسغبة الشديدة ، فجاؤوا إلى أبو الحسن الشاذلي ليستسقي بهم فامتنع وقال : " لعلكم أصبتم في هذه المسغبة بقدومنا " فلما ذهب مرة أخرى لزيارة شيخه عبد السلام بن مشيش (ت622هـ) في جبل العلم عاتبه الشيخ لعزوفه عن التضامن مع الممحلين ، فرجع إلى فاس والقحط متصل ، فقال الشاذلي : " فعند وصولي لفاس وبت هناك وكان آخر الليل أزعجت وأبرقت ونزل غيث كأنه من أفواه القرب " [1].

ويكشف نص آخر عن اهتمام المتصوفة وبعد نظرهم في مواجهة الأزمات ، وذلك بتوفير المياه للناس من خلال إيجاد صهاريج وحُفر أعدت لمواجهة القحوط وقلة المياه . فقد احتبس الماء عن الناس زمن الفقيه أبو وكيل ابن تاميمونت الأسود ، فصاروا يرحلون إلى بلاد فيها مواضع للمياه ، فكان أبو وكيل يسقي الناس من حفرة " أعدها لماء المطر " [2]. ولعل هذا النص يشي إلى حد ما بدور المتصوفة في مواجهة الضغط الديموغرافي ، والتقليل من ظاهرة الحل والترحال .

وقد حرصت السلطات المركزية – مدار البحث - على ضرورة الاهتمام بالجانب الروحي ، لدعم التضامن الاجتماعي ، وذلك عن بالتنسيق مع المتصوفة ، لتلميع صورة الدولة في مراحل ضعفها وأفول نجمها ، ما يعني أن المساعدات المادية التي وفرتها الدول لم تكن كافية للتخفيف من معاناة العوام ، وأن الرأسمال الروحي كان أشد وقعا في قلوب الناس .

ففي زمن القحط الذي ألم بفاس سنة 711هـ/1331م، قام السلطان المريني أبو سعيد عثمان باصطحاب الصلحاء ، وخرج ماشيا من ضريح الشيخ الصالح أبو يعقوب الأشقر (ت689هـ) ، فدعا الله تعالى ليرحم البلاد والعباد " ولم يرجع من هنالك إلا بالمطر لجميع البلاد " [3].

[1]- مؤلف مجهول: مناقب الشيخ الكامل والقطب الجامع سيدي عبد السلام مشيش ، مخ ، خ.ع. الرباط ، ميكروفيلم ، ضمن مجموع رقم (1484د) ، ص 246-247 .

[2]- ابن الزيات : التشوف، ص 235 .

[3]- ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص 526-527 .

ساهمت سرعة انتشار الأمراض المصاحبة للكوارث الطبيعية ، علاوة على بروز سلوكيات غير متعقلة [1]، في خلق المناخ العام لسيادة دور المتصوفة ، أضف إلى ذلك محدودية مرافق العلاج " وارتفاع تكاليف التطبيب " بحيث اقتصرت على فئة محدودة [2]. لذا فقد اتجه الناس نحو رباطات الأولياء ، التماسا لبركتهم ، وتخليصا من الأمراض المستعصية ، ولم يدخر المتصوفة جهدا في سبيل تخفيف معاناة ألم المصابين ، وذلك باستخدام كراماتهم الخارقة دون أجرة مقابل ذلك [3]. فيكفي للولي أن يتفل أو ينفث على مكان العلة حتى يبرأ صاحبها ، وقد اشتهر بذلك الشيخ أبو يعزى [4]. وكذلك أبو زكرياء الأسود (ت601هـ) [5]. ومن باب كرامات الأولياء أن ريق الولي كان " رقية لكل شيء " [6]. كما أوثر عن أبو محمد الأبلة في مدينة سلا " إذا لمس بيده مريضا شفي وإذا قرأ في أذن مصروع أفاق " [7].

وتجدر الملاحظة أن تيار المتصوفة خرجوا عن نطاقهم الديني المقتصر على مساعدة الفقراء والمنكوبين ، ليشمل التدخل بالأمور السياسية [8]، حيث تذكر كتب المناقب أن أحد العامة هدّده عامل الأمير علي بن يوسف ، فشكى ذلك إلى الولي عبدالله بن وكريس ، فما مرت مدة قصيرة حتى قضي على العامل [9].

مما سبق : لقد حال والمتصوفة ما أمكن التخفيف من معاناة وبؤس العامة ، ومحاولة إزالة كل الأسباب المؤدية للدّين ، سواء أكانت اقتصادية أم اجتماعية . حتى وإن تم ذلك في بعض الأحيان عن طريق الرؤى والأحلام ، ومن ركبته

---

[1] - استشرى التطبيب الخرافي في بوادي المغرب ، وقد أكد ابن خلدون ذلك فقال: " إن للبادية ... طب يقيسونه في الغالب على بعض الأشخاص متوارثا عن مشايخ الحي وعجائزه وربما يصح منه البعض إلا أنه ليس على قانون طبيعي ولا على موافقة " . ابن خلدون: مقدمة، ص 493.

[2]- أحمد المحمودي: عامة المغرب الأقصى في العصر الموحدي ، طبع منشورات عكاظ ، الرباط ، يونيو ، 2001م، سلسلة دراسات وأبحاث ، منشورات جامعة المولى إسماعيل ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، مكناس ، ص 106 .

[3]- ابن قنفذ: أنس الفقير، ص31 .

[4]- العزفي: دعامة اليقين في زعامة المتقين (مناقب الشيخ أبي يعزى) ، مطبعة المعارف الجديدة ، الرباط ، 1989م، ص 50-51.

[5]- ابن الزيات: التشوف، ص414

[6]- الصومعي: كتاب المعزى في مناقب الشيخ أبي يعزى ، تح/ علي الجاوي ، منشورات جامعة ابن زهر ، سلسلة رسائل وأطروحات ، أكادير، ص 123 .

[7]- الحضرمي: السلسل العذب، ص71 .

[8]- محمد مزين: وثيقة جديدة حول توزيع المياه بفاس المدينة القديمة (عدوة الأندلس) في أواخر العصر المريني ، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، جامعة محمد بن عبدالله ، فاس، العددان 2-3 ، 1979-1980م ، ص 391 .

[9]- ابن الزيات: التشوف، ص 98 .

ديون جراء الأوضاع المتأزمة أدوها عنه ، ومن لزمه ضامن ضمنوه . إنها محاولة لصيانة التركيبة الاجتماعية قدر الإمكان ، وما تلك النصوص إلا صور رمزية حاولوا من خلالها أن يعطوا للناس ، وخاصة علية القوم والأغنياء ، دروسا في التضامن والتكافل الاجتماعي مع باقي الطبقات المنكوبة ماديا . إنها دعوة صريحة لإزالة الفوارق الطبقية ، ومساعدة الآخرين .

5- الأحباس :

نشأ نظام الأحباس مع بداية الإسلام ، وله من الوجهة الاقتصادية دور عظيم في إسهام أصحاب الأموال ، بجانب عظيم من مدخراتهم لمساعدة الناس . والحبوس و الأحباس مصطلح أطلقه المالكية في المغرب والأندلس ، وتضمنته كتب فقههم بأحكامهم المختلفة [1].

لم تقتصر الحوالات الحبسية على الاهتمام بالجانب الديني [2]، فقد أولى المحبسون عناية عظيمة بتحبيس أموالهم من عقارات وأموال وكتب على المساكين ، والضعفاء [3].

ومن ذلك تحبيس الأراضي الزراعية التي تردد صداها في كتب النوازل سواء في المغرب أو الأندلس [4]، ودور السكن [5]، وكتب العلم على الطلبة [6]، والطعام والشراب بمختلف أشكاله [7]، وكذلك المال المحبس على الفقراء [8]. إلى جانب بناء القناطر ومدّ الطرق وتسهيلها ، وهذا ما أحدثه الشيخ أبو إبراهيم إسحاق الأمغاري.

كما ساهمت الأحباس الحكومية ، ضمن برنامج التضامن الاجتماعي ، على انتشال المجتمع من الأزمات الغارق فيها . فقد سعى الخليفة الموحدي يعقوب

---

[1] - محمد عبد الوهاب خلاف: خطة الأحباس في الأندلس ، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، مركز النشر لجامعة القاهرة ، القاهرة ، العدد 53، مارس ، 1992م، ص 187 .

[2]- عياض: القاضي عياض وولده ، مذهب الحكام في النوازل والأحكام ، تقديم وتحقيق وتعليق : محمد بن شريفة ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ط2 ، 1977 م، ص 205 .

[3]- ابن الحاج: نوازل ابن الحاج ، مخ ،خ.ع. الرباط ،ميكروفيلم رقم (55ك) ، ص 74 .

[4]- الونشريسي: المعيار ، ج182/7،157،49.

[5]- الونشريسي: المعيار ، ج59/7.

[6]- الونشريسي: المعيار ، ج264/7،227.

[7]- الونشريسي: المعيار ، ج76/7 .

[8]- الونشريسي: المعيار ، ج44/7 .

المنصور إلى مساعدة الزوايا القائمة على أساس مدّ يد العون للناس في النوائب والأزمات ، فدعمها وذلك بوقف الممتلكات والعقارات ، وتسهيل خدمة مشاريعها فكان من جملة ما حبس " زاوية للفقراء ورباطا ومدرسة " [1]، على زاوية أبي العباس السبتي .

وأولى المرينيون عناية فائقة للأعمال الخيرية المستديمة ، فحبسوا عقارات وممتلكات لتغطية الخدمات الاجتماعية والاقتصادية ، فقد بنى يعقوب بن عبد الحق " الزوايا .. وأوقف لها الأوقاف الكثيرة لإطعام عابري السبيل وذوي الحاجات " [2]. كما أوقف الأمير عبد العزيز (768-774هـ) الكثير من الأحباس ومن أشهر ذلك " خزانة الكتب المشتملة على أمهات الدواوين " [3]. وأحدث السلطان أبي عنان خزانة للكتب في جامع فاس شملت كافة أنواع العلوم والفنون والآداب والأذهان واللسان [4].

لقد دعت الفئات الحاكمة إلى ضرورة الاهتمام بالمجتمع ، وتلبية كافة متطلباته ، وذلك في إطار خطة عملية تهدف إنصاف الفئات المعدمة ، ومساعدتها على الأزمات الحياتية . فأحدث الحكام المرينيون دورا ، ومسكنا للمستضعفين الذين لا مأوى لهم [5]. ومما يدل على استدامة هذه الحلول السوسيو اقتصادية ، ما ذكره الوزان لدى حديثه عن تدنست وتكوليت التابعة لمدينة حاحا ، في إقليم مراكش ، حول وجود ملاجئ كانت معدة للفقراء [6]، كما أحدثوا أماكن لتعريس المكفوفين الذين لا سكنى لهم " فكلما اقترن كفيف بنظيرته أقاما ... مراسم الزفاف " [7]، وشيدوا دورا أخرى لتعريس الفقراء الذين لا مأوى لهم وجهزت الدور بالفرش والأثاث وما يلزم من أمور العرس [8].

---

[1]- المراكشي: الاعلام، ج1/283-284 .

[2]- ابن أبي زرع: بو الحسن علي بن عبد الله الفاسي (ت 726هـ) الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، دار المنصور، الرباط 1972م ،ص 91.

[3] - ابن أبي دينار: المؤنس في أخبار إفريقية وتونس ، دار المسيرة ، بيروت ، ط3،1993م،ص 175 .

[4]- الجزنائي: زهرة الآس ، ص 112.

[5]- مجموعة من الباحثين: مذكرات، ص77 .

[6]- الحسن الوزان : وصف إفريقيا، تر/ محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الثانية، 1983م ، ج1/99-100 .

[7] - مجموعة من الباحثين : مذكرات ، ص77 .

[8] - مجموعة من الباحثين : مذكرات ، ص 77-78 .

هذا فضلا عن الأحباس الموقوفة على البيمارستانات ، التي اتخذت إلى جانب مهمتها الصحية ، جانبا خيرا تمثل في تغسيل وتكفين الغرباء ، والمستضعفين [1].

يمكن القول : من خلال هذه العجالة إن الأحباس شكلت دعامة وسنداً مهماً ، لنظام الدولة الاقتصادي ، وذلك في التخفيف من نفقات الخزينة المالية ، فقد شغلت دورا عالياً، في تشغيل اليد الفلاحية ، وذلك من خلال توزيع الأراضي على الفقراء والمهمشين ، وساهمت في إحياء الحياة السوسيو اقتصادية ، بحيث أنها قامت بتوظيف طيف واسع من العامة ، داخل المنشآت الوقفية ، فضمنت لهم دخلا جيدا . وخففت وإلى حد ما من أزمة السكن العقاري ، وذلك بما وهب للناس من عقارات سكنية . كما أدت الكتب والمكتبات المحبسة دورا عظيما في تنشيط الوسط الفكري ، وإحيائه .

وكان وراء ذلك وعي ثلة لا بأس بها من الأعيان والحكام ، بضرورة الاهتمام بالإنسان كوحدة أساسية ، ضمن النسيج الاجتماعي المتكامل ، فكان لابد من التضامن مع أفراد المجتمع .

خاتمة

أوضح البحث مدى المحاولات التي قام بها رجال الإصلاح من الحكام والسياسيين والأعيان والمتصوفة؛ لانعاش الواقع الاقتصادي والاجتماعي ، في ظل الأزمات والكوارث التي عصفت بأفراد المجتمع ودفعهم إلى الهجرة والانسياح، وانتشار الفوضى، وغم أن تلك التدخلات انحصرت في ثلة من المسؤولين والأغنياء، كانحصارها في بعض المناطق دون غيرها، لكنها كانت كفيلة برأب الصدع في المجتمع وإيقاف النزيف الاجتماعي ، وسدّ الخلخلة الاقتصادية، علاوة على ذلك فقد تجلت مساعدات المتصوفة على كافة الجوانب الانسانية إضافة إلى التدخل في الجوانب السياسية.

[1] - مجموعة من الباحثين : مذكرات ، ص 74 .

وحقيقة القول رغم أن تلك المحاولات كانت خجولة لم ترق للمستوى المطلوب لكنها ساهمت و إلى حدّ بعيد في التخفيف من أعباء الدولة والمجتمع.

المصادر والمراجع

المخطوطات

- ابن الحاج: نوازل ابن الحاج ، مخ ،خ.ع. الرباط ،ميكروفيلم رقم (55ك).

- ابن هيدرو: ماهية المرض الوبائي وتسمى أيضا الخطبة المكية في الأمراض الوقائية، مخ،خ.ح.الرباط، رقم(9605).

- ابن هيدرو: الاعتبارات النظرية في الأحكام النجومية ، مخ . خ.ع . الرباط ، ميكروفيلم ، ضمن ، رقم (291د)

- مؤلف مجهول: مناقب الشيخ الكامل والقطب الجامع سيدي عبد السلام مشيش ، مخ ، خ.ع. الرباط ، ميكروفيلم ، ضمن مجموع رقم (1484د).

- مؤلف مجهول: مناقب الشيخ الكامل والقطب الجامع سيدي عبد السلام مشيش ، مخ ، خ.ع. الرباط ، ميكروفيلم ، ضمن مجموع رقم (1484د).

- مؤلف مجهول: تقييد في الأنواء وشهور السنة ، مخ ، خ.ع . الرباط ، ميكروفيلم ، رقم (2765د)، ص 320-321 .

- كنون: الدر المنظوم في نصرة القطب المكنون ، مخ ، خ.ع ، الرباط ، ميكروفيلم ، ضمن مجموع ، رقم (1991د).

المصادر العربية

- - ابن الأبار: أبو عبد الله محمد بن عبد الله القضاعي ،(ت658هـ/1260م ، الحلة السيراء، تح ، عبد السلام الهراش ، دار المعرفة ، الدار البيضاء ، (د.ت).

- ابن أبي زرع: أبو الحسن علي بن عبد الله الفاسي (ت 726هـ) الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، دار المنصور، الرباط 1972م.

- ----------: المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك بني المغرب وتاريخ مدينة فاس ، مر/ عبد الوهاب بنمنصور ، المطبعة الملكية ، الرباط ، ط2، 1420هـ / 1990 م.

- ابن أبي دينار: محمد بن أبي القاسم الرعيني القيرواني (ت 1111هـ)، المؤنس في أخبار إفريقية وتونس ، دار المسيرة ، بيروت ، ط3،1993م.

- ابن غازي: محمد غازي العثماني (919هـ) ، الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون ، تح/ عبد الوهاب بنمنصور ، المطبعة الملكية ، الرباط، ط3، 1420هـ / 1999م.

- ابن صاحب الصلاة: أبو محمد عبدالملك بن ابراهيم الباجي (ت594هـ)، المن بالإمامة ، تح/ عبد الهادي التازي ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ط3 ، 1987 م.

ابن الخطيب: محمد بن عبدالله بن أحمد السلماني (ت776هـ)، معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار ، تح/ محمد كمال شبانة ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، 1423هـ/ 2002م.

- ابن القطان:أبو الحسن علي بن القطان الفاسي (ت 628هـ)، نظم الجمان لترتيب ما سلف من أهل الزمان، تحقيق : محمود علي مكي ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 1990م.

- ابن مرزوق: محمد بن أحمد بن مرزوق التلمساني (781هـ)،المسند الصحيح الحسن في مآثر مولانا أبي الحسن ، دراسة وتحقيق، ماريا خيسوس بيغيرا، الشركة ا- ابن بطوطة: أبو عبدالله محمد إبراهيم اللواتي (779هـ)، رحلة ابن بطوطة ، دار صادر ، بيروت ، 1384هـ/1946م، الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 1401هـ / 1981م.

ابن الزيات: يوسف بن يحيى بن عيسى التادلي (ت 627هـ)، التشوف إلى رجال التصوف ، تح/ أحمد التوفيق، طبعة البيضاء 1984م، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، الرباط .

- ابن عيشون الشراط: محمد بن عيشون الشراط أبو عبدالله (ت 1109هـ)،الروض العاطر بأخبار الصالحين من أهل فاس ، دراسة وتحقيق زهراء النظام ، مطبعة النجاح الجديدة ، الدار البيضاء ، 1997م .

- ابن قنفذ: أبي العباس أحمد الخطيب (ت810هـ)، أنس الفقير وعز الحقير اعتنى بنشره وتصحيحه محمد الفاسي أدولف فور ، المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط ، 1956م.

- أبي عبد الرحمن محمد بن الحسين السلمي (ت 412هـ): طبقات الصوفية ، تح/ مصطفى عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط1429،1هـ/1998م.

- التليدي: المطرب بمشاهير أولياء المغرب ، دار الأمان ، المغرب ، ط1421،3هـ/2000م.

- الحميري : محمد عبد المنعم الحميري (ت 900هـ) ، الروض المعطار في خبر الأقطار ، تح/ إحسان عباس ، مكتبة لبنان ، بيروت ، ط2، 1984م.

- الحسن الوزان : الحسن بن محمد المعروف بليون الإفريقي (ت حوالي 957هـ)، وصف إفريقيا، تر/ محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الثانية، 1983م .

الحضرمي : أبو عبد الله محمد بن أبي بكر، كتاب السلسل العذب والمنهل الأحلى، تح/ مصطفى النجار، منشورات الخزانة العلمية الصبيحية، سلا، مطابع سلا، (د.ت) .

- عياض: القاضي عياض وولده ، مذهب الحكام في النوازل والأحكام ، تقديم وتحقيق وتعليق : محمد بن شريفة ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ط2 ، 1977 م .

- الإدريسي: أبو عبدالله محمد الهاشمي القرشي (ت559هـ)، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، 1414هـ / 1994م.

- البرزلي: فتاوى البرزلي، تقديم وتحقيق ، محمد الحبيب الهيلة ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ط1، 2002م.

- البادسي: المقصد الشريف والمنزع اللطيف في التعريف بصلحاء الريف ، تح/أحمد سعيد أعراب ، الطبعة الملكية ، الرباط ، 1420هـ/1982م.

- الجزنائي: أبو الحسن علي (ت ق 8هـ)، جنى زهرة الآس في بناء مدينة فاس، المطبعة الملكية، الرباط ،196م.

- السملالي: العباس بن ابراهيم (ت)،الاعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام، تقديم، عبدالوهاب ابن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، 1413هـ/1993م.

- الصومعي: أبو العباس أحمد بن أبي القاسم (ت 1013هـ)، كتاب المعزى في مناقب الشيخ أبي يعزى ، تح/ علي الجاوي ، منشورات جامعة ابن زهر ، سلسلة رسائل وأطروحات ، أكادير، 1995م.

- العمري: ابن فضل الله العمري (ت 749هـ)، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق مصطفى أبو ضيف أحمد، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1988م .

- العسقلاني: شهاب الدين أحمد بن علي بن محمد الشافعي العسقلاني (ت852هـ/1448م)، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة (الذيل) ، تحقيق وتعليق ، أحمد فريد الزيدي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، (د.ت).

- العزفي: أبو العباس أحمد السبتي (ت 633هـ)، دعامة اليقين في زعامة المتقين (مناقب الشيخ أبي يعزى) ، مطبعة المعارف الجديدة ، الرباط ، 1989م.

- مؤلف مجهول: الاستبصار في عجائب الأمصار ، نشر وتعليق سعد زغلول عبد الحميد ، مطبعة جامعة الإسكندرية ، مصر ، 1985م.

- مؤلف مجهول: مفاخر البربر ، دراسة وتحقيق ، عبد القادر بوباية ، دار أبي رقراق، القاهرة ، ط1، 2005م .

- مؤلف مجهول: الاستبصار في عجائب الأمصار، نشر وتعليق سعد زغلول عبد الحميد ، مطبعة جامعة الإسكندرية ، مصر، 1985م.

- الشفشاوني : محمد بن عسكر (ت 986هـ)، دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر ، تح/ محمد حجي ، مراجعة عبد المجيد خيالي ، منشورات مركز التراث الثقافي المغربي ، الدار البيضاء ، ط3، 1424هـ/2003م.

- الونشريسي: أحمد بن يحيى (ت 914هـ)، المعيار المعرب والجامع المغرب في فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب ،خرجه ، جماعة من الفقهاء بإشراف محمد حجي ، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ، المملكة المغربية ، 1401هـ / 1981م.

المراجع

- - إبراهيم القادري بوتشيش: حلقات مفقودة من تاريخ الحضارة في الغرب الإسلامي ، دار الطليعة ، بيروت ، ط1 2006م.

- إبراهيم حركات: الحياة الاقتصادية في العصر المريني ، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، جامعة محمد الخامس، الرباط ، العدد 3-4 ، 1978.

- أبو اليزيد العجمي : الزهاد والمسلمون ومجالات العمل الإسلامي ، مجلة المسلم المعاصر ، إصدار مؤسسة المسلم المعاص، بيروت ، العدد 33، 1403هـ/1983م

- أحمد المحمودي: عامة المغرب الأقصى في العصر الموحدي ، طبع منشورات عكاظ ، الرباط ، يونيو ، 2001م، سلسلة دراسات وأبحاث ، منشورات جامعة المولى إسماعيل ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، مكناس.

- حبيب القيسي: نظرات في بعض ملامح العامة للحياة الروحية والفكرية في المغرب ، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، مطبعة المعارف ، بغداد، العدد 16 ، 1973م.

- سامية مصطفى مسعد: الحياة الاقتصادية والاجتماعية في إقليم غرناطة في عصري المرابطين والموحدين ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، ط1 ، 2003م.

- سحر عبد العزيز سالم: مدينة الرباط في التاريخ الإسلامي منذ نشأتها حتى نهاية عصر بني مرين ، مؤسسة سباب الجامعة الإسكندرية ، ط1، 1966.

- عز الدين عمر موسى: النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ط1424،2هـ/ 2003م.

- مراجع عقيلة الفناوي: سقوط دولة الموحدين ، منشورات جامعة قار يونس ، بنغازي ، 1409هـ/1988م.

- محمود علي مكي: وثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين ، مكتبة الثقافة الدينية ، مصر ، ط1، 1424هـ/2004م.

- محمد المنوني: حضار الموحدين ، دار طوبقال ، الدار البيضاء ، ط1، 1989م .

- محمد حجاج الطويل: النشاط الاقتصادي في تادلا خلال العصر الوسيط ، سلسلة ندوات ومناظرات تادلا المجال الثقافة ، المملكة المغربية ، جامعة القاضي عياض ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، بني ملال ، 1992م.

- محمد المنوني: نظم الدولة المرينية ، مجلة البحث العلمي ، جامعة محمد الخامس ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، الرباط ، العدد 4-5،السنة الثانية ، (1385هـ/1965م) .

- محمد الرشيد ملين: عصر المنصور الموحدي ، مطبعة الشمال الإفريقي ،(د.ت).

- محمد مزين: وثيقة جديدة حول توزيع المياه بفاس المدينة القديمة (عدوة الأندلس) في أواخر العصر المريني ، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، جامعة محمد بن عبدالله ، فاس، العددان 2-3 ، 1979-1980م .

- محمد عبد الوهاب خلاف: خطة الأحباس في الأندلس ، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، مركز النشر لجامعة القاهرة ، القاهرة ، العدد 53، مارس ، 1992م.

المراجع الأجنبية:

Vovell(Michel);La mort et l occident de anons jours, editions .Callimard et Panth eons,Paris 1983.

Dufourcq;La vie quotedienne dans L Euroupe sous La .domination arab,Paris1978 .

Allain(ch); Reconnaissances archeologiques dans le massif des .Rehamn Bahira et la dans Hesp.1954.

Deverdun(G); Marrakech des origins ,et ,et techniques Nord .techniques Nord , Africaines . Rabat. 1912

الإعلام ودوره في التحولات السياسية الحركة التومرتية نموذجا

الدكتور: بسام العلوش
كلية الآداب – جامعة البعث

ملخص البحث

يؤثر الإعلام في حركة المجتمع، وحركة الإنسان داخل المجتمع، وللأهمية البالغة التي يحتلها الإعلام في شتى مجالات الحياة، كان لابد من تبيان دور الإعلام المزيّف والملفّق، في ذهنيات المجتمع وسلوكياته.

تعد الحركة التومرتية التي قادها محمد بن تومرت "المهدي"، من أشد الحركات الدينية ذكاء، نظراً لما اكتست به من طابع العصبية القبلية، وتسترت بوشاح الدّين، في إطار تزييف الحقائق وأدلجتها وفق ما تقتضيه المصلحة السياسية، فلم يتورع ابن تومرت باستخدام أي لغة

مبتذلة أو خطاب مسموم، مادام هدفه توسعة الذّات المتورمة التي تصور أنه زعيم شعبي، ومن ثم إمام ونبي.

كلمات مفتاحية:

الإمـام – الإعـلام – الدعائيـة – البلطجـة الإعلاميـة – تشـويه الحقـائق – الإذاعات...

Abstract

The media affects the movement of society and the human movement within society, and due to the great importance that the media occupies in various areas of life, it was necessary to clarify the role of the fake and fabricated media in the mentalities and behaviors of society.

The Tumart movement led by Muhammad bin Tumart "Al-Mahdi" is considered one of the most intelligent religious movements, given the nature of tribal fanaticism, and disguised itself with the mantle of religion, in the context of falsifying and ideologizing the facts as required by the political interest. Ibn Tumart did not hesitate to use any vulgar language. Or a poisoned speech, as long as its goal is to expand the swollen self that depicts

him as a popular leader, and then an imam and a prophet.

هدف البحث:

يهدف البحث إلى رصد العلاقة بين الإعلام وعامة المجتمع ودوره الحقيقي في أوقات الرخاء والأزمات كونه يشكل ركيزة أساسية لحركة الإنسان داخل المجتمع. ورصد الحركات التاريخية القائمة على تزييف الحقائق، وتلفيق الأكاذيب، وفبركة النصوص للوصول إلى غايتها بغض النظر عن المصداقية.

منهج البحث:

تم الاعتماد على المنهج الوصفي الاستقرائي الاستنتاجي، وذلك من خلال تحليل النصوص التاريخية للحصول ما أمكن على معطيات مادية بشقيها الزماني والمكاني، لتبيان دور التزييف والكذب الإعلامي وآثارها السلبية في حركة المجتمع، والتحولات السياسية

إشكالية البحث:

كيف يتحول الإعلام من دوره التثقيفي الهادف إلى تبيان الحقائق وإيصالها للجمهور، إلى دور سلبي متراجع؟

هل يمكن القول إن الحركات التاريخية اتخذت من الإعلام وسيلة لقلب الأنظمة الحاكمة؟

ما هو دور المؤسسات الحكومية في وقف الإعلام المأدلج، القائم على فبركة الأحداث وتأويلها وفق المصلحة الشخصية؟

مقدمة:

يشكل الإعلام بوسائله وأدواته المختلفة أداة لا يمكن الاستغناء عنها للدول والشعوب، سواء في أوقات الرخاء، أو الأزمات، فالإعلام بطبيعته يوثر في حركة المجتمع، وحركة الإنسان داخل المجتمع، وللأهمية البالغة التي يحتلها الإعلام في وقتنا الحالي، وازدياد أهمية ومكانة وسائل الإعلام في شتى مجالات الحياة الإنسانية، كان لابد من تبيان دور الإعلام المزيف والملفق في عقول العوام، وأثره السلبي في تقويض الدول والمجتمعات وتهديمها، ولعل هذا مادعا بول يوزف غوبازوزير الإعلام النازي لقول: "أعطني إعلاماً بلا ضمير أعطيك سعباً بلا وعي".

ولكون الأحداث التاريخية تذخر بتلك المعطيات مع الفارق في وسائل الاتصال وتكنلوجيا الإعلام، فقد أَلِفَ الباحث تسليط الضوء على الوسائل الإعلامية التي اتبعتها الحركة التومرتية لإحداث تحول سياسي ساهم في قلب نظام أول تجربة وحدوية بين المشرق والمغرب خلال القرنين 5-6هـ/11-12م، إضافة إلى تبني نظام اجتماعي جديد.

يمثل الإسلام منذ ظهوره أفقاً إيديولوجيا لجميع المطالب الاجتماعية، أياً كانت أشكالها واختلافاتها، وإن المتتبع للنصوص التاريخية يلحظ وبجدارة

ظهور العديد من الدول المكتسية بطابع العصبية القبلية، والمتسترة بوشاح الدين، في إطار تزييف الحقائق وأدلجتها وفق ما تقتضيه المصلحة السياسية، ولعل دعوة محمد ابن تومرت "المهدي"، إلا ضرباً لتلك الدعوات التي أسفرت عن أفول وإظهار دول.

بداية يجدر التنويه أن الباحث ليس في إطار الحديث عن تأصيل تاريخي للدعوة التومرتية، أو انهيار الدولة المرابطية، بقدر الحديث عن الخطوات والوسائل الدعائية لمؤسس الدولة الموحدية، وصاحب الحركة التومرتية.

كما يسعى البحث إلى توضيح الفرق الشاسع في مفهوم التاريخ عند المفكرين المحترفين المعاصرين في البلدان المتقدمة، حيث ليس التاريخ عندهم مجموع الأحداث التي وقعت في الماضي، ويرويها المؤرخ كما وصلت إليه، وإنما التاريخ عندهم رؤية تركيبية تعتمد على تحويل أحداث الماضي إلى اسقاطات على الواقع الراهن عبر عملية استنتاجية لاتقف عند حدود الملاحظة كما هو الحال عند النظرة التقليدية للتاريخ التي لا تعطي أهمية للمؤرخ ولا للحاضر، وتنتقل مباشرة من الماضي إلى المستقبل عن طريق رواية حكايات تحكي ما مضى وما سيحدث في المستقبل 1.

وضع محمد ابن تومرت الصنهاجي، وليد الثلث الأخير من القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، أسساً فكرية دعائية لدعوته محاولاً إنشاء

[1] - عبدالله العروي: مفهوم التاريخ الألفاظ والمذاهب المفاهيم والأصول، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 2005م ط4، ص 30-45.

دولته الجديدة، ليطلق على دعوته "دعوة الموحدين"، والتسمية بحد ذاتها تشي بدعائية مقيتة أراد صاحبها إظهار نفسه، وأصحابه، أنهم العارفين بالله، وبالتالي إصباغ الشرعية الدينية، وإظهار الدولة المرابطية بالكفرة المجسمين [2]، وهذا ايهام إعلامي مغلف أراد منه صاحبه حشد الأزيد من الأنصار والأتباع، وتعبئة الرأي العام ضدة دولة المرابطين.

نسب ابن تومرت:

يجد القارئ نفسه أمام إشكالية بين صحة وزيف النسب، فقد ادعى ابن تومرت النسب القرشي الهاشمي، وهذا ما أقره بعض المؤرخين [3]، في الوقت الذي ادعى البعض الآخر بزيف وبطلان النسب القرشي ، وأن أصله من قبائل هرغة البربرية [4]. وأن ادعاء ابن تومرت لنسب الرسول صلى الله

[2] - المجسمون: هي مصطلح إسلامي يطلق على من يقول بأن الله جسم، أو من يشبه الله بالمخلوقات. وكان المرابطون يثبتون لله تعالى صفات كما لبشرلكن محمد بن تومرت أخذ فكر المعتزلة في نفي الصفات البشرية عن الله تعالى، وادعى أن الأمير المرابطي علي بن يوسف بن تاشفين ومن معه من العلماء والولاة ومن يعمل تحت حكمهمومن يرضى بحكمهم هم من الكافرين. حول ذلك أنظر: البيذق: المقتبس من كتاب الأنساب في معرفة الأصحاب، تحقيق: عبدالوهاب بن منصور،دار المنصور، الرباط، 1971م ص 12، ابن القطان "نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان"، تحقيق: محمود علي مكي، دار الغرب الإسلامي، ط 1، 1990، ص 15-40.

[3] - البيذق: المقتبس ، ص 34. الزركشي: تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، طبعة تونس، المكتبة العتيقة ، ط1، 1266 هـ ص 151. ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، المسمى العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس خليل شحادة، مراجعة سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية 1988م، ج6، ص226

[4] - ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط. 1972،ص 172، ابن عذارى:

عليه وسلم ما هو إلا شعار ونحلة باطلة لتعبئة الرأي العام بنسبه إلى آل البيت [5]، ولعل ما يثبت هذا الزعم أن معظم المؤرخين الذين أثبتوا نسبه لآل البيت هم من تلاميذه، أو من مؤرخي الدولة الموحدية الذين سجلوا تاريخها بوحي من حكامها، وبتأثير من نزعتهم العقدية.

يبدأ مشوار ابن تومرت الدعائي وتفكيره السياسي منذ رحلته القرطبية سنة 501هـ/1116م، قاصداً حاضرة العلم والمعرفة "قرطبة" ليتتلمذ على يد عدد من علمائها النابهين أمثال القاضي ابن حمدين، وليكون شاهداً على حادثة مفصلية في مجال العلوم العقلية، ربما كانت سبباً رئيسياً في تكوين مستقبل ابن تومرت، وذلك إثر ثورة رجال الدين على كتاب إحياء علوم الدين للإمام الغزالي، إذ أقنع العلماء يرأسهم القاضي ابن حمدين، الأمير المرابطي علي بن يوسف بن تاشفين، باستصدار فتوى بحرق الكتاب في ميدان قرطبة بحجة عدم صحته، ولعل هذا ما أثار صدمة لدى ابن تومرت، فهذا الشاب الذي كان مدفوعاً بحماسة مؤمناً بانفتاح علماء الأندلس للارتقاء بالعقل البشري؛ يفاجئ برسوبهم لدى أول امتحان ديني فلسفي.

لذا فقد رفض ابن تومرت استكمال دراسته على يد علماء الأندلس ليتوجه قبل المشرق الإسلامي، مغيّراً خطه الفكري عن طريق طلب العلم على يد أكابر علماء المشرق ومن الأصول دون الفروع، حيث تنقل بين

البيان المغرب، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1983م ، ج4، ص 68، الحنبلي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق: محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، بيروت، 1986م ،ج4، ص 70.

[5] - محمد عبدالله عنان: عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1989م، ص 160.

عواصمه الثلاث (بغداد، مكة، القاهرة) أعانه على ذلك ذكاؤه ومثابرته وهمته العلية [6]، فأفاد من هذه الرحلة علماً غزيرا وبالأخص في مجال العلوم الفلسفية والعقائدية.

وبنفس خط الرحلة يذكر ابن أبي زرع ، عن لقاء الغزالي بتلميذه ابن تومرت حول صحة إحراق كتابه في قرطبة فأجابه بصحة الخبر على مرأى ومسمع من الجميع في قرطبة [7]، الأمر الذي أثار حفيظة الإمام الغزالي فدعا على المرابطين بضياع ملكهم، وهنا يطلب ابن تومرت أن يدعو له الغزالي بأن يتحقق الأمر على يده، فوافق الغزالي على ذلك [8].

هنا يبدأ السند الشرعي، وتبدأ معالم السلطة السياسية بالظهور بحجة الانتقام من دولة المرابطين، ولعل ما يؤكد ذلك أن خط سير رحلة الشاب التومرتي، وتتلمذه على أيدي فقهاء العلوم العقلية واللسانية، تنبأ بطموح سياسي لقلب نظام الحكم المرابطي، والإطاحة بالوحدة المرابطية الهشة القائمة أساساً على العصبية القبلية، ولهذا كان لابد من إعداد العدة وتأليب العامة من المغاربة ضد المرابطين، ولا يتم ذلك إلا من خلال السيطرة على الإذاعات الإعلامية (المساجد، حلقات الدروس)، لإحداث خلخلة سياسية، ورجة اجتماعية في الحكم.

---

[6] - المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ضبطه وصححه وعلق على حواشيه وأنشأ مقدمته محمد سعد العريان ومحمد العربي العلمي، دار الكتاب، الدار البيضاء، ط7، 2001م ص 179، ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق : إحسان عباس دار صادر، بيروت، 1988م، ج5، ص46

[7] - عصمت دندش: الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل عصر الموحدين، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1988م، ص 38.

[8] - ابن ابي زرع: الأنيس المطرب، ص174.

مرتكزات الدعوة التومرتية:

أ- العصبية القبلية:

ألمح ابن خلدون في حديثه حول تطور مفهوم الدولة إلى القاعدة الاجتماعية، التي ارتكزت عليها السلطة في المجتمعات السياسية، وتحديد الأنساق العامة للفعل الاجتماعي والسياسي [9]، وهو ما تؤكده المقاربات لدراسة حركة ابن تومرت، التي تمحورت في بدايتها العصبية حول إبراز دور قبيلة مصمودة كبربر حضر كان لهم شأو في تاريخ الفتوحات المغربية والأندلسية، وإظهار المرابطين كبربر بدو، وبالتالي إظهار عصبة منظمة متضامنة فيما بينها وفق رابطة العصبية القبلية هدفها إسقاط الحكم المرابطي، ولملمة الشتات لقبائل الموحدين الحضرية ، وفق رابطة العصبية القبلية [10].

وهو ما أشار إليه الجابري عندما عرف العصبية عند ابن خلدون : بكونها رابطة اجتماعية سيكولوجية شعورية ولا شعورية معاً تربط أفراد جماعة ما قائمة على القرابة ربطاً مستمراً يبرز ويشتد عندما يكون هناك خطر يهدد أولئك الأفراد كأفراد أو جماعة [11].

[9] - ابن خلدون: المقدمة، ج1، ص140-151.
[10] - انظر محمد عابد الجابري: فكر ابن خلدون العصبية والدولة، بيروت، دار الطليعة، ط3، 1982م، ص 245.
[11] - الجابري: فكر ابن خلدون، ص254.

ويظهر أن ابن تومرت قد استغل عصبية قبائل مصمودة، ضد قبائل المرابطين الصنهاجية، حيث تعود العداوة بين هذه القبائل إلى زمن بعيد فاختلاف أنماط الحياة الاجتماعية والاقتصادية كان مجالاً لصراعات عديدة؛ فالمصامدة قبائل عرفت نمط حياة الاستقرار ومزاولة الزراعة، بينما صنهاجة المرابطين تعتمد الرعي وتربية الماشية والإبل[12]، ولا شك أن أقوى الأسباب تجلت في حشد الرأي العام لإظهار الفارق الاجتماعي بين تلك القبائل، فالملاحظ من خلال المراكشي المعاصر للأحداث التاريخية [13]، إنه لا أثر لوجود دليل على الشعور بالانقلاب على السلطة الحاكمة اجتماعياً أو اقتصادياً قد ظهر عند المصامدة قبل عودة ابن تومرت خلال القرن 6هـ/12م، وفق أسلوبه الإعلامي الجديد، في محاولة لجمع الأتباع والتمهيد لثورة على المرابطين، وهو ما أكده ابن خلدون لدى حديثه أن الأجيال الأعرق قادرة على التغلب على سواها في القوة والعصبية [14].

ب- العصبية الدينية:

حسب رأي ابن خلدون وهو الخبير بشؤون المجتمعات وتطورها،"العصبية الدينية" الشرط الثاني لضمان النقلة النوعية من التطور القبلي إلى الملك [15].

[12] - عصمت دندش: الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين عصر الطوائف الثاني، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1988م ص 36

[13] - المراكشي: المعجب، ص191.

[14] - ابن خلدون: مقدمة ، ص 184-185.

[15] - ابن خلدون: مقدمة: ص 207-208.

نظراً لكون الدعوة الدينية تجد صداها العميق في العناصر البدوية وبخاصة عندما يتعلق الأمر بالرجوع إلى الأصول الاجتماعية في المعاش [16]، وهي إحدى الدعائيات الايديولوجية التي انطلق منها ابن تومرت لاستقطاب قبائل مصمودة وتحفيزها على التغيير، مستنداً في ذلك إلى رسالة أبي حامد الغزالي، ودعوته في السعي بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ناهيك عن إدعائه بالنبوءة وأنه المهدي المنتظر، محاولا تقديم الغطاء اللازم وإخفاء دوافعه الكامنة لإحداث انقلاب في الدولة المغربية القروسطية، وتغيير الموروث الاجتماعي الذي لا يتأتى إلا بتقويض دول وإنشاء دول أخرى.

فماهي الوسائل الإعلامية التي اتبعها ابن تومرت لإحداث ثورة سياسية ومذهبية، أدت لحدوث تحولات تاريخية في مركزية دول الغرب الإسلامي.

1- تحفيز مشاعر الخوف والذعر وتعبئة الرأي العام:

ينبأ الواقع التاريخي للحقبة المدروسة بخوف الأندلسيين من بذوغ حروب الاسترداد الاسبانية، التي راحت تتجمع وتعد عدتها للسيطرة على الأندلس والانتقام من المرابطين بعد معركة الزلاقة سنة 479هـ/1086م[17]، فضلاً عن تذمرهم من حالة الإسراف التي وصل إليها المرابطون، وانسياقهم

[16] - للاستزادة أنظر: ابراهيم القادري بوتشيش: تاريخ الغرب الإسلامي قراءات جديدة في بعض قضايا المجتمع والحضارة، دار الطليعة ، بيروت، ط1، 1994م، ص 21-27.

[17] - عصمت دندش: الأندلس في نهاية المرابطين ، ص 34-36.

وراء البذخ والترف، مما ساهم بتمرير فكرة إلى عقول تلك المجتمعات الإسلامية بعدم قدرة حكام الدولة المرابطية على حماية الإسلام؛ وبما أن الإنسان يفقد قدرته على التحليل والتركيز العقلاني حين يخضع لضغوط سيكولوجية ودينية، يمكن حينها ببساطة تمرير كمية من الكذب والمبالغات، عن طريق طرح شعارات واهية غايتها جمع الأتباع، وحشد الجماهير، التي تنساق دون أي مقاومة، الأمر الذي سعى إليه ابن تومرت عندما ركز على انقلاب المرابطين على مبدأهم القائم في "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر" وانتقالهم من حالة الزهد والتقشف إلى البذخ والترف، مصوراً المجتمع المرابطي بانفلات أخلاقي واضطراب اجتماعي، منتحلاً ذات المبدأ الذي تخلى عنه المرابطون، بهدف لفت أنظار الناس إلى المُدافع الجديد عن الدين الإسلامي، فضلاً عن تكوين خلايا سرية، ليكونوا بمثابة دعاة لبث أفكاره وشعاراته الجديدة [18].

ظل ابن تومرت مدة عشر سنوات (505-515هـ/1111- 1116م) ينتقل بين أقاليم ومدن المغرب الأقصى، لعرض دعوته على الناس ونشر أفكاره بينهم، فكثر أنصاره ومؤيدوه وذاع صيته بينهم وتعارف الناس به [19]. ولما بلغ صيته الإعلامي الكثير، استدعاه السلطان علي بن يوسف وسأله عن مبتغاه فأجاب ابن تومرت بأنه يطلب الآخرة ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وأن هذه مسؤولية الحاكم قبل غيره، وهذا يؤكد الشهرة الإعلامية ، والحشد الجماهيري الواسع لدعائية ابن تومرت، فضلاً عن تقهقر القوة

[18] - حمد بن صالح السجياني: الاتجاه الفكري لدعوة ابن تومرت دراسة تاريخية، أرشيف الإسلام، رقم التسجيل، 83976، الامارات العربية المتحدة، (د.ت)، ص95.

[19] -ابن أبي زرع: الأنيس، ص 174.

المرابطية وخشية الناس على ضياع ملكهم جراء الظهور الإسباني [20].. وإلا فكيف يتجرأ ابن تومرت على التمادي في حضرة الأمير المرابطي [21].

كما أشار ابن تومرت إلى ابتعاد فقهاء المرابطين عن تعاليم الإسلام، حيث اتخذ من تدخل النساء في أمور الحكم ذريعة لمهاجمة المرابطين، فقد وصف المراكشي ذلك بقوله: "واستولت النساء على الأحوال وأسندت إليهن الأمور، وصارت كل امرأة من أكابر لمتونة ومسوفة مشتملة على كل مفسد وشرير، وقاطع سبيل، وصاحب خمر وماخور" [22].

تتابع المصادر التاريخية أنه لدى عودة ابن تومرت من المشرق، وتشبعه بالأفكار الثورية ولقاءاته من قادة المرابطين، وما ناله من إعجاب شعبي ، وتعبئة الرأي العام بأفكاره الفلسفية المستنيرة [23]، ارتأى الانتقال إلى مسقط رأسه ببلاد السوس، حيث نزل على قومه وقبيلته مصمودة سنة 515هـ/1116م، بمعنى وجود بيئة حاضنة لابن تومرت، ويعود الانتقال **لأمرين:**

[20] - الزركشي: أخبار الدولتين، ص 5، ابن خلدون: العبر: ج6، ص 228.

[21] - حسن علي حسن: الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس عصر المرابطين والموحدين، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط1، 1980م، ص 453-460.

[22] - المراكشي: المعجب، ص 177.

[23] - نقصد بالأفكار المستنيرة العلوم العقلية التي تعلمها ابن تومرت والتي تطالب الإنسان بإعمال العقل والتفكير الصحيح دون الإنقياد وراء أفكار وآراء فقهاء السلطان، علماً أن الدولة المرابطية كانت تحارب العلوم الفلسفية والعقلية، لذا أراد ابن تومرت أن يستقطب الأتباع حوله من خلال بث الأفكار الرصينة التي تعلمها في المشرق، ليتمكن فيما بعد من إيصال أي معلومة يريدها والتي تهدف لتشويه الحقائق، وتلبية رغبته في الزعامة السياسية.

الأول:

ضمان الحماية اللازمة لدعوته خشية من إعلام فقهاء المرابطين الذين وصفوه بمخالفة معتقدات أهل السنة، والجماعة، وضرورة معاقبته من قبل الأمير المرابطي، سداً للذريعة ودرءاً للفتنة [24].

الثاني:

تأسيس أول إذاعة مرئية ومسموعة، وهي عبارة عن مسجد يجتمع به تلاميذه وزعماء قبيلته لاصطناع الأنصار وبث الأفكار، عن طريق حلقات دروس منظمة، حيث عزم ابن تومرت في بناء مجتمعه الجديد في مستوى التصور العقيدي وأيضاً الممارسة الاجتماعية، لكن الواقع ينبأ أنه اصطدم بعدة عراقيل داخل البيئة السوسيولوجية البربرية، ولهذا فقد راعى المعطيات المحلية، ووظف اللغة كأداة ووسيلة لإيصال رسائله وتعليماته[25]، فألف كتاب سماه التوحيد بـ اللسان البربري، قسمه إلى سبعة أحزاب على عدد أيام الأسبوع، ويحتوي هذا الكتاب على أفكار وأسس عقيدة ودعوة ابن تومرت، وعدّ من لا يحفظه كافر [26].

[24] - المراكشي: المعجب، ص187.

[25] - مؤلف مجهول: الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تحقيق: سهيل زكار وعبد القادر زمامة، دار الرشاد، الدار البيضاء، ط1، 1979م ص 109-110.

[26] - ابن أبي زرع: الأنيس ، ص 177.

ولما لاقت دعوة ابن تومرت قبولا في أوساط الهرغيين [27]، تطلع إلى توسيع إطارها المكاني فاختار جماعة من أصحابه كانوا بمثابة مراسلين، لنقل الأفكار إلى القبائل القريبة من بلاد السوس بهدف استمالتها للدعوة الموحدية، وحينما اطمأن من تمكن دعوته في قلوب أتباعه ومؤيديه بدأ يعد العدة للمرحلة الثانية [28].

2- تزييف الحقائق التاريخية والدينية:

إضافة لما أسلفناه سابقاً من تحقيق ضربة استباقية، وسبق إعلامي قام به ابن تومرت من خلال لقائه مع الإمام الغزالي؛ و ادعاءه بأخذ الشرعية من علماء المشرق للإطاحة بالدولة المرابطية، وأن هذا الأمر لا يتم إلا على يد محمد بن تومرت، فضلاً عن التزوير التاريخي بنسبه لآل البيت فقد تجرأ ابن تومرت على الله ورسوله، فحرف الأحاديث الصحيحة وأقحم دلالاتها النصية، ليضل الناس ويلتفوا حوله، وحين اطمأن إلى قاعدته الجماهيرية،

[27] - هرغة: قبيلة بربرية من المصامدة من قبائل جبل السوس بالمغرب الأقصى، وتنسب هرغة إلى الحسن بن علي. الزركلي: الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ط، 15، 2002م، ج6، ص 229.

[28] - ابن أبي زرع: الأنيس، ص 176. المراكشي: المعجب، ص 245.

وحسن الولاء، دعا الناس إلى مبايعته إماماً وكان ذلك في الخامس عشر من شهر رمضان سنة 515هـ/1116م [29].

ويمكن أن نعد هذا اليوم، الفاصل في تاريخ الحركة التومرتية والمغرب الإسلامي، فقد ارتدى ابن تومرت الثوب الروحي الذي اتشح به لتأييد شرعية إمامته وقدسيتها، لتطبيق مشروعه السياسي وفق أهوائه ومصالحه الشخصية.

جاءت مبايعة ابن تومرت إماماً للموحدين قرب مراكش "عاصمة المرابطين"، دون تصدٍ ومقاومة من قبل حكام المرابطين، بل ودون إحساس بالخطر الداهم قرب عاصمتهم، مما يدل أن ابن تومرت لم يجرؤ على إعلان ذلك الشطط في دعوته إلا بعد أن وثق من ولاء عامة الناس له اللذين أقبلوا على دعوته وتفانوا في خدمته؛ لاعتقادهم أنه المهدي المنتظر دون أي تفكير بتكذيب هذا الزيف الإعلامي المقيت.

ولكي يوفر مزيداً من الدعم اللوجستي لدعوته، ولتوسيع قاعدته الشعبية خاطب القبائل القريبة منه للدخول في طاعته فكان له ما أراد[30].

من ناحية ثانية سلك طريق التحصين العسكري إذ غادر جبل ايجليز[31] في بلاد السوس سنة 518هـ/1118م، إلى قرية تينملل ببلاد هرغة،

[29] - ابن أبي زرع: الأنيس، ص 176.

[30] - ابن خلدون: العبر، ج6،ص 228

[31] - ايجليز: جبل صغير يقع بالقرب من مدينة مراكش، يتميز بحصانة موقعه، وأحجاره الصلبة التي استخدمت في بناء مراكش عاصمة المرابطين . الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت ط2، 1984م، ص 540.

نظراً لما تتمتع به من قوة ومناعة، وهو ما يصفه ابن القطان بقوله: "يَسدُّ خَللها أقل عصبة من الناس" [32].

أصبحت تينملل عاصمة للقوة الموحدية الناشئة، فقد قسم أراضيها وديارها على الموالين والمقربين، وبنى مسجداً وداراً له بينهم [33].

وبدأ بوضع أسس الدولة الموحدية "الإدارية والعسكرية"، وتوزيع مسؤوليات الدولة ووظائفها على أصحابه الموحدين، يذكر المراكشي أن ابن تومرت بعد أن كثر لديه المؤيدون والأنصار "سماهم المؤمنين"، وفرض عليهم نظاماً تربوياً وتعليمياً دقيقاً من خلال إلزامهم بحضور حلقات الدروس والتعليم، ممارساً بذلك نوعاً من التكريس الفكري والولاء الأوحد للإمام المهدي، وقال لهم "ما على وجه الأرض من يؤمن إيمانكم وأنتم العصابة المعنيون بقوله عليه الصلاة والسلام لاتزال طائفة من المغرب ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله... فزادت فتنة القوم به وأظهروا له الشدة" [34].

بالمقابل قام بحركة عرفت بالتمييز قتل فيها العديد من أنصاره الذين لا يشك بولائهم، ممارساً نوعا من البلطجة الإعلامية بحجة الخيانة.

[32] - ابن القطان: نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان ، نشره محمود علي مكي، طبعة تطوان، المطبعة المهدية، المهدية، 1987م ، ص75.

[33] - ابن القطان: نظم الجمان، ص 76.

[34] - المراكشي: المعجب، ص276-277.

يمكن القول: تمكن ابن تومرت من خلال تحريف مجموعة من النصوص الدينية بما يخدم هواه، وهوى المؤمنين "أتباعه"، من خداع العامة فأضحت قاعدته الشعبية التي تدين له بالولاء المطلق والمستعدة لبذل الغالي والرخيص لخدمة مهديّها المنتظر، فعدّوه الإمام ومحيي علوم الدين المبعوث لإنقاذ البشرية من خطر المرابطين المجسمين مالئ الدنيا عدلا وخيراً [35].

3- ضرب الرموز "الفقهاء":

من أخطر الوسائل الإعلامية، كونها تتمثل في صياغة صورة ذهنية سلبية لدى الرأي العام تجاه أشخاص وتيارات معينة عبر تصويرها على أنها شخصيات وتيارات هدّامة تهدد الوحدة الوطنية "دول المغرب المركزية"، وأمن البلاد "الخطر الاسباني"، وأنها خطر على الدولة، ويرى نفسه - الدّاعي- أنه المصلح الوحيد، والمحافظ على مصالح البلاد والعباد.

أولى المرابطون عناية كبيرة لفقهاء دولتهم، حتى أن الأمير المرابطي لم يكن يصدر أمراً إلا بعد استشارتهم ولما كان هؤلاء صمام الأمان وركن الدولة المرابطية دينياً؛ فقد ركز ابن تومرت المتفتح عقلياً ، والعائد من المشرق المتشبع بعلم الكلام والمناظرة، المطلع على أمهات مصادر الفلسفة والفقه الإسلامي على ضرب فقهاء المرابطين، وذلك لإظهارهم أمام العامة بعجزهم الديني و انفلاتهم وراء أهوائهم ومصالحهم الشخصية، فأينما كان يمر ابن تومرت يكسر بعصاه متاجر بيع الخمور، ويلقي خطباً ومناظرات مع فقهاء المدن التي كان يزورها.

[35] - المراكشي: المعجب، ص 278.

كثيراً ما أسفرت تلك المناظرات عن تفوقه متصدياً بذلك لهالتهم الايديولوجية الهشة [36]، فكان من المنطقي أن تحدث هذه الدعوة صدىً واسعاً في أوساط أهل المغرب نظراً لما كان يميزها من دعوة للتصادم مع الأنظمة الحاكمة، والاضطرابات التي أحدثتها في الأماكن التي نزل بها، فما لبثت أن وصلت أخباره إلى مسامع الأمير المرابطي علي بن يوسف، الذي استدعاه وأجرى مناظرة بينه وبين فقهاء الدولة المرابطية، ولكون ابن تومرت يدرك طبيعة التكوين السياسي والايديولوجي للدولة المرابطية، فضلا عن سطحية فكر فقهائها [37]،القائم على التسطيح والظاهرية والقبول باليسر من الفكر الديني، ومحاربة علم الكلام والفلسفة، والأديان والمذاهب المقارنة، وبما أن المرابطين خرجوا عن دعوتهم الشرعية الأولى، لذا تمكن ابن تومرت من هزيمة فقهاء الأمير المرابطي، الأمر الذي ساهم في توجيه ضربة إلى بنية الرمز الديني المرابطي، لمحاولة تأزيمه وإظهار عجزه وركوده [38].

فتمكن من تحقيق أكبر هزة روحية في الدولة المرابطية، لكون هذا النمط من الهجوم الإعلامي لا يترك أي فرصة من أجل مناقشة الأفكار أو البرامج أو الانجازات، فتمحى هوية الأفكار بالتبعية عبر تشويه الصورة القدسية لأولئك الأشخاص الذين يعبرون عنها. بمعنى أن ابن تومرت قد نجح باستمالة العامة عندما ضرب فقهاء الدولة المرابطية اللذين هم رموزها المقدسة دينياً، عبر إظهار عجزهم العلمي، وتبيان انفلاتهم الأخلاقي في أواخر عصر الدولة المرابطية من خلال إقامة حفلات الرقص والطرب،

[36] - ابن أبي زرع: الأنيس، ص 174-175.

[37] - La Roul, Abdellah,P.161-162.

[38] - للاستزادة، ابن خلدون، مقدمة، ص67.

والخلاعة والمجون [39]، والتي أنكرها ابن تومرت عليهم، كون الدعوة المرابطية قامت ضد تلك الأفكار، بمعنى انقلاب المرابطين على مبدأهم القائم على "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر" [40].

في وقت كان الناس فيه بحاجة إلى مخلص من تفشي الجور والفواحش وإلى منقذ للأندلس جراء ظهور الخطر الاسباني بعد تضعضع القوة المرابطية وانحدارها. فجاء التركيز على قوة الخصم بإظهار عجزه الديني وانسياقه وراء أهوائه وملذاته.

4- سياسة ابن تومرت في تعيين الخواص

سعى ابن تومرت إلى تركيز سياسته الفكرية القائمة صراحة على الزعامة السياسية، حيث وظف مرتكزاته وأفكاره من خلال تشكيلات إدارية جمع فيها مريديه والأخص منهم، فأعطاهم المال والسلطة، والنفوذ، إذ أتاحت هذه التنظيمات تلقينا مذهبيا وسياسيا مكثفا للقبائل والأتباع والخاص منهم. واتضحت بواسطتها الأهداف السياسية للحركة التومرتية وهي الإطاحة بالحكم المرابطي.

[39] - سببه بعض الفقهاء والقضاة من ذوي النفوس المريضة، فشكى الناس من ظلمهم وفهمهم وكثرة مطالبهم وغراماتهم، وانقيادهم وراء أهوائهم وملذاتهم الشخصية. أنظر : محمود علي مكي: وثائق تاريخية جديدة من عصر المرابطين، المعهد المصري للدراسات الإسلامية، مدريد، 1554م، وثيقة 4، ص 172-173.

[40] - عصمت دندش: الأندلس في نهاية المرابطين، ص 35-36.

علاوة على تمتعه بفهم دقيق للرجال وقدرة على السيطرة عليهم وفق ما عساه يفيده في تحقيق أغراضه السياسية وأطماعه التوسعية 41، وحتى يتمكن من تطييع العامة والخاصة، ضمن المنطوق السياسي و الاجتماعي، كان لا بد له من اصطناع الخواص من "حزب التوحيد" 42، أولئك الذين لا يتوانون أبداً عن تنفيذ ما يريد، وبنفس السياق لهم الحق دون غيرهم في امتلاك زمام الزعامة، لذا أنشأ مجالساً إدارية خاصة به (أهل العشرة، أهل الجماعة، أهل الخمسين) 43، أسماهم ملح الأرض، وعدَّ كل من يمشي على الأرض ملكاً لهم، فلا حسيب ولا رقيب على هؤلاء.

كان على رأسهم أهل العشرة، اللذين تميزوا بالعلم والقدرة القيادية، وبالبذل والتضحية، بمعنى أن اختيارهم كان نتيجة فحص وتدقيق تام، وذلك

41 - اتخذ ابن عبدالله العباسي مثل ابن تومرت في معرض حديثه عن الزهاد والمغالطين أنه ينبغي للملك الخلاص منهم كونهم أهل فتنة وفرقة ويسعون للفساد وما تلك الادعاءات إلا زيف هدفها تقويض أركان الدولة وإثارة الفتنة. الحسين بن عبدالله العباسي: آثار الأول في ترتيب الدول، مطبعة بولاق ، مصر ، 1295هـ، ص50.

42 - ابن تومرت: كتاب أعز ما يطلب ، تحقيق: عمار الطالبي ، المؤسسة الوطنية للكتاب، طبعة الجزائر،1985م ،ص 267،259.

43 - عز الدين عمر موسى: الموحدون في الغرب الإسلامي، تنظيماتهم ونظمهم، دار الغرب الإسلامي، بيروت،ط1، 1991م ، ص 36.

وفق عمل تنظيمي يتم من خلاله انتقاء الصفوة الحزبية واستخلاصهم لنفسه ، ويصف المراكشي هؤلاء بقوله: "ممن استصلح عقولهم"44.

و جاء تسييس الخواص، من خلال العطاءات والامتيازات والاقطاعات، فضلا عن السطلة العالية التي تميزوا بها دون سواهم، لقبول أي مهمة توكل إليهم [45].

وتبعًا لهذا التكفير السابق لغير الموحدين استحلَّ محمد بن تومرت دماء المرابطين؛ ومِنْ ثَمَّ فقد أمر بالخروج عليهم وقتلهم، وأنه ليس هناك إثم في ذلك؛ بل إن في قتلهم إحرازًا لثواب عظيم [46]، وهنا يَبُرز أحد أخلاق محمد بن تومرت فقد كان متساهلاً في الدماء، وهي خاصية من خصائص الخوارج، الذين تَعَلَّم على أيدي بعضهم.

ولنا أن نتخيَّل مثل هذا الأمر في حقِّ المرابطين، الذين فتحوا البلاد، وأقاموا صرح الإسلام في بلاد المغرب والأندلس لسنوات وسنوات، الآن وبعد

[44] - المراكشي: المعجب، ص 188.
[45] - البيذق : أخبار المهدي بت تومرت، دار المنصور، الرباط، 1971م، ص 35.
[46] - المراكشي: المعجب، ص 260.

ظهور بعض المنكرات في بلادهم، وبعد انشغالهم بالجهاد عن التعليم، أصبحوا يُكَفَّرون وتُحَلُّ دماؤهم، ويُقَاتَلون من قِبَلِ جماعة الموحِّدِين، ذلك الاسم (الموحِّدين) الذي يُشير بقوَّة إلى أن غيرهم كفار وليسوا بموحدين أو مسلمين.

وقد استباح في سبيل تحقيق حلمه السياسي ، الدماء والأرواح والأموال، وكانت غايته تلك مبرِّرَة –من وجهة نظره– لكل وسيلة، فكان لا يتردَّد في قتل مَنْ يشكُّ في إيمانه بما يدَّعيه من مبادئ، حتى ولو كان من أتباعه؛ كان محمد بن تومرت في جماعته الجديدة يقتل العشرات من المخالفين له، حتى من فرقته وجماعته (الموحدين)، فالذي يُخَالِفُه في الرأي ليس له من دواء إلاَّ القتل، وهو أمر في غاية الغرابة؛ نظرًا لما عنده من العلم الغزير، وأغرب منه كان ادعاؤه بعض الخوارق [47]، وأنه هو المهدي المنتظر! حيث قام ابن تومرت بما سمِّي التمييز؛ أي: تمييز أتباعه الصادقين من المداهنين والمنافقين والمخالفين، فيقتلهم على الفور ليظلَّ صَفُّه قويًّا 48. **يذكر ابن الأثير أن المهدي نادى في أهل جبل إيكجان بالحضور ، فحضروا للتمييز، فكان الونشريشي – أحد أهم الخواص عند**

[47] - من ذلك أثناء غزوته الثانية لأراضي المرابطين، يذكر أنصاره وخواصه أن المهدي تمكن من طرد جيش المرابطين رغم كثرة عدده بـ "تراب رماها في وجوههم فانعزموا وتركوا الخيل والبغال الذخر والسلاح". البيذق: أخبار المهدي، ص 35.

[48] - وابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ج6، ص 228.

المهدي ابن تومرت– " يعمد إلى الرجل الذي يخاف ناحيته، فيقول: هذا من أهل النار. فيُلْقَى من الجبل مقتولاً، وإلى الشاب الغرِّ ومَنْ لا يخشى، فيقول: هذا من أهل الجنة. فيُتْرَك على يمينه، فكان عدة القتلى سبعين ألفًا، فلما فرغ من ذلك أَمِنَ على نفسه وأصحابه " 49.

هذا فِعْلُ ابن تومرت بمَنْ معه، فكيف يكون فعله بالمرابطين؟!

بمعنى أن المهدي لم يتوانى عن أي عمل أو فعل في سبيل تحقيق مصلحته السياسية حتى لو كان فيها تشويه أو تزييف للدين الإسلامي واستحلال الدماء دون مراعاة للعدو أو الحليف.

5- التعتيم الإعلامي:

لم يتورع ابن تومرت من تحويل الأقلية الصارخة سياسياً إلى أقلية ذات تأثير قوي، وذلك بإيصال الخطاب المهدوي السياسي إلى ذروته، حيث يتسع نطاق المشاركة وحجم وأعداد الفاعلين، غير مبال باستخدام أي لغة مبتذلة، أو خطاب مسموم لخداع العامة، وصرف الأنظار عن المشاكل والأزمات التي تعصف بهم، مادام هدفه توسعة الذات المتورمة التي تصور أنهم أنبياء أو زعماء شعبيون.

49 - ابن الأثير: الكامل في التاريخ ،تحقيق: أبو الفداء عبدالله القاضي، دار الكتب العلمية، بيروت، 1987م، ج 9198-199.

عمد ابن تومرت إلى التأثير بوجه خاص في أغمار الناس وجُهّالهم، وذلك حتى يسهل قيادهم [50]، فبعد أن ضمن المؤيدين له [51]، بدأ يلجأ إلى الحيلة والخداع، ومن ذلك حين اتفق مع أحد تلاميذه وهو عبدالله الونشريسي، وكان على علم ومعرفة فصيحاً في لغة أهل العرب والمغرب [52]، على إظهار العجز والعمى والجهل أمام الأتباع والمريدين، ثم يظهر عكس ذلك في الوقت المناسب الذي يختاره المهدي، وجاءت اللحظة المناسبة حين جمع المهدي القبائل، وأخبرهم بحال الونشريسي التي لمسوها بأعينهم وهي عدم القدرة على الكلام مع الجهل التام، ثم حدوث المعجزة بأن أصبح فصيحاً بالغاً عالماً بشؤون القرآن، وهنا يظهر الونشريسي ويؤكد ما قاله الإمام [53]. وبذلك

[50] - رُويت عنه كثير من الأخبار التي احتال فيها؛ حتى ظهر وكأنه يعلم الغيب، ولا نشك أن له عيونًا وأتباعًا، كما لا شك في أنه شخصية قوية ذات بصر وخبرة وفراسة، يروي المراكشي واقعة منها فيقول: «أخبرني مَنْ رآه -ممن أثق إليه- يضرب الناسَ على الخمر بالأكمام والنعال وعسب النخل؛ متشبّهًا في ذلك بالصحابة. ولقد أخبرني بعض مَنْ شهده وقد أتى برجل سكران، فأمر بحدِّه، فقال: رجلٌ من وجوه أصحابه يُسَمَّى يوسف بن سليمان: لو شدَّدْنَا عليه حتى يُخبرنا من أين شربها لنَحْسم هذه العلةَ من أصلها. فأَعْرَض عنه، ثم أعاد عليه الحديث، فأعرض عنه، فلما كان في الثالثة قال له: أرأيت لو قال لنا: شربتُها في دار يوسف بن سليمان. ما نحن صانعون؟ فاستحيا الرجل وسكت، ثم كُشف على الأمر، فإذا عبيدُ ذلك الرجل سقَوه، فكان هذا من جملة ما زادهم به فتنة وتعظيمًا، إلى أشياءَ كان يُخبر بها فتقع كما يُخبر، ولم يزل كذلك وأحوالُه صالحة، وأصحابه ظاهرون، وأحوال المرابطين المذكورين تَخْتَلُّ، وانتقاض دولتهم يتزيد، إلى أن تُوُفِّيَ ابن تومرت... بعد أن أسس الأمور، وأحكم التدبير، ورسم لهم ما هم فاعلوه» .

[51]- ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق : إحسان عباس دار صادر، بيروت، 1988م ، ج4، ص142. الناصري: الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى، تحقيق وتعليق جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء،1954- 1955م ج2، 139.

[52] - ابن خلكان: وفيات، ج4، ص139.

[53] - ابن خلكان: وفيات، ج4، ص 139، 143 – 144.

يسيطر ابن تومرت على القلوب باستخدام خطاب خدّاع أصاب فيه عقول الناس وأهواءهم.

يمكن للقارئ أن يستنبط من النصوص المصدرية صدق النظرية الميكيافيلية "الغاية تبرر الوسيلة". ومن ذلك إذا ما حاول بعض أتباع المهدي التشكك في سلطته السياسية ودعوته الدينية، قضى عليهم مستغلا بذلك البشير الونشريسي، وقد صور العمري ذلك بقوله: "فكان الونشريسي يعمد إلى الرجل فيقول هذا من أهل الجنة فيترك عن يمينه، وهذا من أهل النار... فكان عدد القتلى سبعين ألفاً" [54]. ولعل هذه الحادثة تنبأ بقوة الخطاب الذي أعلنه المهدي وتبناه أصحابه.

ويبدو ان ابن تومرت لم يدخر وسيلة إلا واستغلها مع ما أوتي من ذكاء ومهارة إضافة إلى اختياره للسذج تبعاً له، إذ تشير المصادر التاريخية أن المهدي حتى في أعتى الظروف التي كان يمر بها لم يدّخر أيّ وسيلة دعائية أو حيل بلطجية إلا واستخدمها للسيطرة على عقول الناس، حيث يذكر ابن ابي زرع [55]، إنه بعد موقعة البحيرة التي خسر فيها المهدي أمام المرابطين أخذ قوماً من أتباعه اللذين بقوا بعد تلك الموقعة ودفنهم أحياءً، وجعل لكل واحد منهم متنفساً في قبره، وقال لهم إذا سُئلتم فقولوا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً وأزيد من ذلك، ولما حضر المهدي ومن معه وسأل اللذين

[54] - العمري: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق مصطفى أبو ضيف أحمد، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط1، 1988م ، ق2،ج1، ص 266 – 267.
[55] - ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص 179.

في القبور أجابوه :"وجدنا عند الله تعالى مالا عين رأت، ولا أذن سمعن ولا خطر على قلب بشر".

مثل هذه الحادثة توضح الحملة الإعلامية الدعائية المُشابة بالخطاب المضلل الذي استقاه المهدي عبر أدلة مرئية، وارتباطات غير منطقية لتحويل الخسارة الحربية التي كادت تَئِدُ دعوته إلى نصر ديني وشعبوي.

6- الشَّعبويَّة:

نقصد بها إدعاء التوافق مع الشعب للسلطة ووصم الخصوم بمعادة الشعب. بعدما تأكد للمهدي من توافق ديني وسوسيو اجتماعي، بين السلطة والأتباع، وهو مايصفه المراكشي بقوله: "ولم تزل طاعة المصامدة لابن تومرت تكثر وفتنتهم به تشتد وتعظيمهم له يتأكد، إلى أن بلغوا في ذلك حداً لو أمر أحدهم بقتل أبيه أو أخيه لبادر إلى ذلك من دون إبطاء" [56]. الأمر الذي يؤكد اتحاد القبائل المصمودية مع المشروع التومرتي المتمثل في إسقاط الدولة المرابطية.

شرع المهدي في مرحلته الهجومية العسكرية بتوجيه ضربات للدولة المرابطية في عقر دراها في العاصمة مراكش؛ امتدت ربع قرن انتصر فيها ابن تومرت في كثير من المواقع، وانهزم في مواقع أخرى أبرزها موقعة البحيرة سنة 524هـ/1129م، التي هزّت كيان دعوته الناشئة وكادت أن تطيح بها، ورغم الأثر العميق لتلك الموقعة لكن المهدي استخدم ذكائه

[56] - المراكشي: المعجب، ص 191.

ونباهته لتوظيف الخسارة وتحويلها إلى فوز روحي، ومن ذلك قصة المقابر التي أسلفناها سابقاً.

توفي المهدي ابن تومرت على إثر موقعة البحيرة، لما تركت من آثار نفسية عليه، لكن الواقع يشير أن الدعوة التومرتية المتمثلة بالإسقاط السياسي للدولة المرابطية وإقامة الدولة الموحدية، لم تنتهِ بوفاة مهديّها بل استمر أتباعه من بعده على نفس النهج للإطاحة بالدولة المرابطية، وتمكن تلميذه عبدالمؤمن بن علي "أحد أفراد العشرة"، من إحراز نصر على المرابطين واسقاط دولتهم في المغرب الأقصى سنة 541هـ/ 1147م.

خاتمة:

من كل ما تقدم يمكن القول:

- إن دعوة محمد بن تومرت "المهدي"، قد لاقت صداها في مجتمع المغرب الإسلامي، فقد تمكن المهدي من تقديم معلومات تاريخية إعلامية ملفقة بنبرة

حادّة، حملت في طياتها قيادة مؤهلة للإصلاح الأخلاقي والديني، التي بدأت رياحها تعصف بالأندلس عقب ظهور الخطر الاسباني، وأثبت المهدي نفسه كشخصية قيادية تفوق قوى كل الناس، جعلت منه منزهاً عن الخطايا والذنوب، بل ومعصوماً من الخطأ.

- قدِر ابن تومرت بفضل رحلته العلمية، والمشارب العديدة التي نهلها من العلوم العقلية والنقلية، من تجاوز ظاهر النصوص، وحرفيتها، لتوظيف دعايته السياسية المزيفة، من خلال شيطنة دعوته مستغلا سطحية الفكر الفقهي والعقلي للمرابطين.

- لم يتورع ابن تومرت من تحويل الأقلية الصارخة سياسياً إلى أقلية ذات تأثير قوي، وذلك بإيصال الخطاب المهدوي السياسي إلى ذروته، حيث يتسع نطاق المشاركة وحجم وأعداد الفاعلين، غير مبال باستخدام أي لغة مبتذلة، أو خطاب مسموم لخداع العامة، وصرف الأنظار عن المشاكل والأزمات التي تعصف بهم، مادام هدفه توسعة الذات المتورمة التي تصور أنهم أنبياء أو زعماء شعبيون.

- استطاع المهدي تمرير خطاب سياسي، وديني مقيت من خلال قنواته الإعلامية ، التي تبث تعاطفه الواضح مع العامة، فاستجابوا له والتفوا حوله، مستغلا ضعف ولاة أمر المسلمين ما جعله ينيط بنفسه مسؤولية تغيير السلطة المرابطية.

- أجاد ابن تومرت في لفّ القبائل الحضرية "مصمودة"، حول دعوته، عندما أظهر حدة التمايزات الطبقية بين البدو والحضر، لإظهار هشاشة الوحدة المرابطية.

- عمل ابن تومرت على إيجاد فريق إعلامي قام بتدريبه وإعداده وتنظيمه وفق أهواءه، وتهيئته لخلق إعلام تفاعلي مع الجمهور.

- لجأ الداعية المهدي إلى التشهير والفضيحة، وتلطيخ السمعة للخصوم "الفقهاء"، مستغلا دعائية الحرب النفسية لإضعاف الروح المعنوية لدى جمهور الخصم، فقد حملت خطاباته الإعلامية نبرة عدائية تجاه الانزياح الديني والأخلاقي لفقهاء وأمراء المرابطين، فضلا عن إظهار جو الفساد جرّاء تدخل النساء في أمور الحكم.

رغم أن هذا البحث لم يسعفنا في حلّ حيثيات هذا الموضوع، وإعطائه حقه من النقاش والتحليل، لكنه محاولة لتبيان خطر الفكر التلفيقي والإعلام المضلل في أذهان وسلوك العامة، خاصة عندما يلقى بيئة حاضنة، تكون سبباً في حدوث خلخلة اجتماعية، واضطراب اقتصادي، وهزات سياسية، تنهي عُمر الدول، وتقضّ أمنها واستقرارها، لذا كان لابد من تسليط الضوء لمثل هذه الأبحاث.

المصادر والمراجع

المصادر العربية:

- **ابن الأثير**، علي بن محمد بن عبدالكريم الشيباني الجزري أبو الحسن عزالدين (ت 637هـ) الكامل في التاريخ ،تحقيق: أبو الفداء عبدالله القاضي، دار الكتب العلمية، بيروت، 1987م.

- **ابن خلدون**، أبو زيد عبد الرحمان بن أبي بكر الحضرمي (ت 808هـ): تاريخ ابن خلدون، المسمى العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس خليل شحادة، مراجعة سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية 1988م.

- ----------: مقدمة ابن خلدون، دار الكتب العلمية ، بيروت، ط3، 1427هـ،2006م.

- ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر (ت781هـ): وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق : إحسان عباس دار صادر، بيروت، 1988م.

- **ابـن تـومرت**، محمـد بـن عبـد الله الهرغـي (ت 524 هــ): كتـاب أعـز مـا يطلــب ، تحقيــق: عمــار الطــالبي ، المؤسســة الوطنيــة للكتــاب، طبعــة الجزائر،1985.

- **ابـن عـذارى** ،أبـو محمـد عبـدالله بـن محمـد المراكشـي (ت 712هــ): البيـان المغرب، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1983م.

- **ابـن العمـاد الحنبلـي** (ت 1089هــ): شـذرات الـذهب فـي أخبـار مـن ذهـب، تحقيق: محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، بيروت، 1986 ج4، ص 70.
- **الزركشـي**، أبـو عبـد الله محمـد بـن إبـراهيم اللؤلـؤي التونسـي (كـان علـى قيـد الحيـاة سـنة 894 هــ): تـاريخ الـدولتين الموحديـة والحفصـية، طبعـة تـونس، المكتبة العتيقة ، ط1، 1266 هـ .
- **ابن القطان**، أبـو علـي حسـن بـن محمـد بـن عبـد الملـك بـن يحيـى الكتـامي ، (ت 628 هــ) : نظـم الجمـان لترتيـب مـا سـلف مـن أخبـار الزمـان ، نشـره محمود علي مكي، طبعة تطوان، المطبعة المهدية، 1987م.
- **ابـن أبـي زرع**، أبـو الحسـن علـي بـن عبـد الله الفاسـي (ت 726هــ): الأنـيس المطـرب بـروض القرطـاس فـي أخبـار ملـوك المغـرب وتـاريخ مدينـة فـاس، دار المنصور للطباعة والوراقة ، الرباط. 1972م.
- **البيــذق**، أبــي بكــر بــن علــي الصــنهاجي (559هــ): أخبــار المهــدي بــت تومرت، دار المنصور، الرباط، 1971م.

- **الحسـين بـن عبـدالله العباسـي**، الحسـن بـن عبـدالله بـن محمـد بـن عمـر العباســي (ت النصــف الأول مــن ق8هــ):آثار الأول فــي ترتيــب الــدول، مطبعة بولاق ، مصر ، 1295هـ.

- **الحميـري**، محمـد بـن عبـدالمنعم الحميـري (ت900هــ): الـروض المعطـار فـي خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروتـ ط2، 1984م

- **العمـري**، ابـن فضـل الله العمـري (ت 749هــ): مسـالك الأبصـار فـي ممالـك الأمصـار، تحقيـق مصـطفى أبـو ضـيف أحمـد، مطبعـة النجـاح الجديـدة، الـدار البيضاء، ط1، 1988م.
- **المراكشـي**، محيـي الـدين أبـو محمـد عبـد الواحـد بـن علـي (ت 647هــ): المعجـب فـي تلخـيص أخبـار المغـرب، ضـبطه وصـححه وعلـق علـى حواشـيه

وأنشأ مقدمته محمد سعد العريان ومحمد العربي العلمي، دار الكتاب، الدار البيضاء، الطبعة السابعة، ، ص 179.

- **مؤلف مجهول** (من أهل الأندلس ق 8هـ): الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تحقيق: سهيل زكار وعبد القادر زمامة، دار الرشاد، الدار البيضاء، ط1، 1979م.

- **الناصري**، أبو العباس أحمد بن خالد (ت 1315هـ): الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى، تحقيق وتعليق جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء،1954- 1955م.

المراجع العربية:

- **ابـراهيم القـادري بوتشـيش**: تـاريخ الغـرب الإسـلامي قـراءات جديـدة فـي بعض قضايا المجتمع والحضارة، دار الطليعة ، بيروت، ط1، 1994م.

- **حسـن علـي حسـن**: الحضـارة الإسـلامية فـي المغـرب والأنـدلس عصـر المرابطين والموحدين، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط1، 1980م.

- **خيـر الـدين بـن محمـود الزركلـي الدمشـقي (ت 1396هـ)**: الأعـلام، دار العلم للملايين، بيروت، ط، 15، 2002م، ج6، ص 229.
- **محمـود علـي مكـي**: وثـائق تاريخيـة جديـدة مـن عصـر المـرابطين، المعهـد المصري للدراسات الإسلامية، مدريد، 1554م.

- **حمـد بـن صـالح السـجياني**: الاتجـاه الفكـري لـدعوة ابـن تـومرت دراسـة تاريخيـة، أرشـيف الإسـلام، رقـم التسـجيل، 83976، الامـارات العربيـة المتحدة، (د.ت).
- **عبـدالله العـروي**: مفهـوم التـاريخ الألفـاظ والمـذاهب المفـاهيم والأصـول، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط4، 2005م .

- **عـز الـدين عمـر موسـى**: الموحـدون فـي الغـرب الإسـلامي، تنظيمـاتهم ونظمهم، دار الغرب الإسلامي، بيروت،ط1، 1991م.
- **عصـمت دنـدش**: الأنـدلس فـي نهايـة المـرابطين ومسـتهل الموحـدين عصـر الطوائف الثاني، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1988م.
- **محمـد عابـد الجـابري**: فكـر ابـن خلـدون العصـبية والدولـة، دار الطليعـة، بيروت، ط3، 1982م.
- **محمـد عبـدالله عنـان**: عصـر المـرابطين والموحـدين فـي المغـرب والأندلس، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1989م.

المسنين بعد الحرب في سورية واحتياجاتهم

"دراسة ميدانية في محافظة دمشق"

إعداد

أ.م.د ربى أحمد مزيد*

ملخَّص

يسلط البحث الضوء على واقع شريحة عمرية مهمة هي "المسنون" للتعرف على احتياجاتهم الاقتصادية والخدمية؛ التي تسهم –في حال تمت تلبيتها بالشكل الأمثل– في تحسين واقع المسنين في سورية بعد الحرب ومواجهة بقية مشكلاتهم وحاجاتهم الأخرى. مستخدماً في التحقق من ذلك المنهج الوصفي التحليلي الذي وجه هذا البحث ومن خلال طريقة المقابلة والمجموعات البؤرية.

وفي الدراسة الميدانية تم رصد احتياجات المسنين في سورية بعد الحرب وانقسمت إلى احتياجات اقتصادية واحتياجات خدمية، وكانت وجهة نظر المسنين بزيادة المشكلات هذه والضغوطات بعد الحرب. وتوصل البحث إلى نتائج هامة ومن ثم التوصيات.

الكلمات المفتاحيَّة: المسن، الحرب، احتياجات المسنين.

* أستاذة مساعد في قسم علم الاجتماع - كلية الآداب والعلوم الإنسانية - جامعة دمشق.

Elderlies after the war in Syria and their needs

"A field study in the governorate of Damascus"

Dr. Roba Ahmad Mazid*

Abstract

The research sheds light on the reality of an important age group, the "elderly", to identify their economic and service needs; Which, if they are optimally met, contributes to improving the situation of the elderly in Syria after the war and facing the rest of their problems and other needs. Using the descriptive analytical method that directed this research and through the interview method and focus groups to verify that.

In the field study, the needs of the elderly in Syria after the war were monitored and were divided into economic needs and service needs. The view of the elderly was that these problems and pressures increased after the war. The research reached important results and then recommendations.

Keywords: elderly, war, needs.

* - Dept. of Sociology, Faculty of Arts and Humanities, University of Damascus

مقدِّمة

المسنون ثروة بشريَّة، وكنز وطني وتراكم خبرات لا تُقَدَّر بثمن، ومن هذه النقاط لا بد من قراءة واقعية لواقع المسنين في سورية بعد الحرب ووضع خطة للاستفادة منهم وتحويلهم لقوى منتجِة فعّالة واستثمار خبراتهم. ويأتي هذا البحث في إطار الوقوف على أبرز الاحتياجات الاقتصادية والخدمية للمسنين بعد الحرب في سورية؛ إذ تعاني هذه الثروة البشريّة في سورية من الكثير من المشكلات خاصة في الأرياف، وتواجه المسنات الإناث تحديات إضافية بسبب كونهن إناث. وأسهمت تداعيات الأزمة –في سورية– في تدمير القطاعات الخدمية والإنتاجية وإلحاق الضرر بالمنازل والبُنى التحتية وكان تأثيرها أكثر على الفئات الأكثر هشاشةً من مُهَجَّرين ومسنين ونساء وأطفال.

مشكلة البحث وتساؤلاته

بعد مرور عشر سنوات في الحرب على سورية، لا بد من مراجعة واقع المسنين ودَوْرِهم في المجتمع والمشكلات التي يعانون منها وخاصة الاقتصادية والخدمية منها، في ظل محدودية الدخل وازدياد مصاريفه بسبب كبر السن، وأصبحت فرص المسنين أقل بالعمل والمشاريع البسيطة والتكييف مع الظروف الجديدة وممارسة النشاطات الاقتصادية ومواجهة نقص الخدمات.

وتكمن مشكلة البحث: في ضعف ونقص تلبية الاحتياجات الاقتصادية والخدمية في حياة المسنين سواءً داخل الأسرة وداخل المجتمع وداخل دُور الرِّعاية والمؤسسات وتمثلت مشكلة البحث في التساؤل الآتي:

*** ما هي احتياجات المسنين بعد الحرب في سورية؟**

ويتفرع عنه الأسئلة الآتية:

- ✓ ما هي احتياجات المسن الاقتصادية في سورية بعد الحرب؟
- ✓ ما هي الحاجات الخدمية للمسن في سورية بعد الحرب؟

أهمية البحث وأهدافه

تبرز أهمية البحث من خلال النقاط الآتية:

أ-أهمية نظرية: تأتي أهمية البحث من أهمية واقع المسنين الاقتصادي والخدمي في سورية بعد الحرب، وأهمية هذا الواقع في حياتهم وانعكاسه على بقية جوانب حياتهم ومساعدتهم على التكيّف في المجتمع والتفاؤل بالحياة.

ب-الأهمية العملية: دراسة الاحتياجات الاقتصادية والخدمية للمسن من أجل تقديم الحلول للمشكلات الاقتصادية والخدمية وتأمين حياة كريمة لهم، وللاستفادة من النتائج التي يقدمها البحث من قبل الجهات المختصة بشؤون المسنين.

وتهدف الدراسة إلى تسليط الضوء على واقع المسنين والمشكلات التي تهدد استقرار المسن وأسرته في المجتمع بعد الحرب على سورية من خلال التعرف إلى احتياجات المسنين الاقتصادية والخدمية التي تساعد في حل مشكلاتهم الجديدة التي نتجت بسبب الحرب.

الدراسات السابقة

الدراسة الأولى- التغير في بنية الأسرة وواقع المسنين: توثيق الحجار، ريما، سورية

(2002): قامت الباحثة ريما في تحليل طبيعة العلاقة بين بنية الأسرة وواقع المسنين في المستوى النظري والعملي وظروف المسن.

الدراسة الثانية– تقييم تجربة الرعاية الإيوانية للمسنين في محافظة دمشق، ربى مزيد دمشق: قامت الباحثة ربى مزيد بإجراء مسح شامل لجميع دُور الرعاية الاجتماعية للمسنين في محافظة دمشق وريفها والتعرُّف على المشكلات الخاصة للمسنين المقيمين في الدُّور وهم يعدون الحالة الخاصة للمسنين.

الدراسة الثالثة– أوضاع المسنين واحتياجاتهم في دُور الرعاية الاجتماعية للمسنين، الهيئة السورية لشؤون الأسرة، دمشق (2010): قام الباحثان يوسف بريك وسمير حسن وأكرم العش بدراسة واقع المسنين في دُور رعاية المسنين والمشكلات التي يعانون منها واحتياجاتهم.

الدراسة الرابعة– احتياجات المسنين وآليات الارتقاء بأوضاعهم، الهيئة السورية لشؤون الأسرة، نجوى قصاب حسن، دمشق (2010).

الدراسة الخامسة– واقع كبار السن ورعايتهم في الأسرة والمجتمع، الاتحاد النسائي، مكتب الدراسات، نجوى قصاب حسن، دمشق (1996).

الدراسة السادسة– مظاهر التغير بواقع المسنين في الجمهورية العربية السورية، يوسف بريك وأحمد الأصفر، دمشق (2007).

مفاهيم ومصطلحات البحث

- **المسن:** كل فرد تجاوز عمر 60 في سورية.

- **تمكين المسن:** إعادة إعطاء فرصة للمسن للمشاركة الفاعلة.
- **حاجات اقتصادية للمسن:** الحاجة لسد الحاجات المادية وارتفاع الدخل.
- **حاجات الخدمية للمسن:** الحاجات التي تُقَدَّم للمسن من خدمات يومية كالطبخ والحمّام والعناية الشخصية والمواصلات...

منهجية البحث

استخدم البحث المنهج الوصفي التحليلي الذي ساعد على فهم واقع المسنين ومشكلاتهم الاقتصادية والخدمية ووصف احتياجاتهم بعد الحرب في سورية وقد استخدم طريقة المقابلة حيث سحبت عينة بالطريقة العشوائية في محافظة دمشق بعد تحضير أسئلة مسبقة هدفها الاجتماع بالمسنين والتركيز على واقعهم وطرح مشكلاتهم والتغيرات التي طرأت عليهم بسبب الحرب.

الإطار النظري للبحث

1-لمحة عامة عن المسنين: لا يمكن معاملة المسنين في هذه المرحلة العمرية بطريقة متشابهة حيث للفروق الفردية والشخصية والبيئة والظروف الاقتصادية والصحية والاجتماعية والنفسية دور كبير في واقع كل مسن، حيث هناك عدة مقاييس لتحديد هذه المرحلة منها:

"- **العمر الزمني:** هو مقياس يتفاضل به مع عدد السنين.

- **العمر البيولوجي:** هو مقياس يتناول الجوانب العضوية.

- **العمر النفسي:** وهو مقياس الخصائص النفسية والتغيرات في سلوك الفرد

وعلاقته وحاجاته ودوافعه."(†)

حيث إن الموقف من العمر أهم من العمر نفسه، فنحن مسنون بالقوة وليس بالاختيار والفعل.

وفي سياق متصل "اتفق علماء الشيخوخة في الأمم المتحدة والمنظمات الدولية على أن سن (60) هو العمر الفاصل بين كبر السن والكهولة بينما تعد إدارة الإحصاءات التابعة للاتحاد الأوروبي أن كبار السن هم الذين بلغوا (65) سنة فأكثر، فبعض المصادر تحدد عمر 60 ومصادر أخرى تحدد 65 وما فوق حيث ثمة أشخاص أعملوا خير عطاءاتهم في سنين متأخرة."(‡)

2-تداعيات الحرب في سورية على أوضاع المسنين: في الحديث عن الأزمة السورية والحرب والاعتداء المجرم على سورية تكثر القصص وتطول الأحاديث ولكل بيت سوري حكاية مختلفة عن الأخرى فيها من المشكلات المتفاوتة بحسب ظروف هذه الأسرة أثَّرت الحرب في سورية على الأسرة السورية بجميع أفرادها في الدرجة الأولى وشهدنا أكبر هجمة شرسة على مجتمع هو أكثر المجتمعات حضارةً واعتدالًا، حيث أنتجت الحرب على سورية أعباء ومشكلات شبه خيالية ومقيتة أمام الأسرة التي يُعَدُّ المسن أحد أفرادها حيث تفاوتت مواجهة الحرب على المسنين وأسرهم حسب الظروف من دم وقتل وذبح من التنظيمات الإرهابية وتعنيف واغتصاب إلى دمار المنازل وفقدان أحد أفراد الأسرة والخطف والموت

(†) إسماعيل، عزت سيد، الشيخوخة أسبابها ومضاعفاتها، الكويت، وكالة المطبوعات، 1983، ص17.

(‡) عاقل، فاخر، علماء نفس أثروا في التربية، سورية، شعاع للنشر والعلوم، 2004، ص8.

والتعذيب إلى مناطق أقل سخونة تتمثل بالقذائف والتفجيرات إلى تهجير المسنين من مناطق غير آمنة إلى مناطق أكثر أمناً، مما وضعهم أمام تحديات وصعوبات حقيقية لا تُطاق، أغلب المهجَّرين قسرياً خضعوا إلى عدة أنماط من الناس في المناطق الجديدة منها المستغلِّون وتجّار الحرب والدم ومنها الطيبون المتفهمون الذين لم يقصِّرُوا مع المسنين أو الأسر ومنهم من كان في حالة اقتصادية ممتازة وبسبب الحرب خسر كل ما يملك وبدأ من جديد، فباتت مشكلات المسنين أكثر ألماً وأكثر صعوبةً وإعادة دمجهم بالمجتمع مضاعفة بعد تغيير نمط حياة عمره سنوات، نتج عنه تعقيدات حياتية وفقدان للأبناء أو سفرهم أو ظاهرة (الأم العزباء) التي ترعى أولادها والمسنين من عائلاتها وذهاب الرجال والشباب إلى العسكرية والحرب أو السفر مما وضعنا أمام مشكلة شديدة الصعوبة والتعقيد مع المسنين (ماذا سيعمل المسن وكيف سيندمج مع المجتمع الجديد، تراجع الحالة النفسية له، عدم قدرته على العمل كالسابق، عدم استطاعته تعلُّم مهنة جديدة أو حِرْفَة مثل عمر الشباب، خسارة مسكنه وحيِّه وجيرانه وأصدقائه، عدم وجود دخل له، معاناتهم من التفكك الأسري وعدم الاستقرار العائلي، ... إلخ) وبالرغم من الجهود التي بذلتها المؤسسات الرسمية والحكومية والخاصة والجمعيات الخيرية والمنظمات الإنسانية في سورية، إلا أنها لن تستطيع تغطية عدد وحاجات المسنين.

2-1- نزوح المسنين: من أهم تداعيات الأزمة السورية على الأسر هي النزوح واضطرار الأسر إلى تهجيرهم من المناطق الغير آمنة إلى مناطق أكثر أمناً، وكان كبار السن كأحد أفراد الأسر النازحة يواجهون صعوبات أكثر بسبب تراجع قدرتهم الجسدية وعدم قدرتهم على الإنتاج كالسابق، وفي سياق متصل غالبية أفراد

المجتمع المضيف للأسر النازحة في المجتمع السوري عاملوا الأسر معاملة جيدة وخاصة كبار السن نظراً لعادات وتقاليد المجتمع السوري التي تحث على احترام كبار السن، ورغم الجهود المبذولة من القطاع الحكومي والأهلي والرسمي والخيري والمجتمعي إلا أنها لن تستطيع تغطية كافة الأعداد النازحة وتلبية كافة الاحتياجات. يعيش المسن في ظل الحرب في سورية وما بعد الحرب من تداعيات سلبية وضغوطات كبيرة بسبب النزوح ويعني البداية من الصفر ناهيك عن فقدان الأولاد بسبب الأزمة مما زاد أزمة المسنين أزمة متفاقمة.

كما عانى المسنون من قلة فرص العمل أو الاضطرار لعمل جديد بسبب النزوح والإقامة ببيوت صغيرة عند الأقارب والمعارف وفاعلي الخير... من جهة أخرى استغل البعض المسن وحاول سرقته أو استنفاد ما بقي معه من مال أو ذهب أو إهماله أو إساءة معاملته وهنا زادت معاناة المسنين خاصة أن فكرة ترك المنزل للمسن هي فكرة صعبة جداً فهو متعلق بذكرياته وجيرانه وحارته وليس بسهولة أن ينتقل إلى مكان جديدة

2-2-انخفاض مستوى الدخل وصعوبة تأمينه: يشكل الجانب الاقتصادي في حياة المسن عصب حياته ودخل المسن في الحرب أصبح أصعب ووسائل تأمين الدخل أصبحت أقل، خاصة مع غلاء الأسعار وارتفاع مستوى المعيشة والحصار الاقتصادي على سورية وصعوبة تأمين بعض مستلزمات الحياة، رغم كل الجهود المبذولة الرسمية والحكومية وغير الحكومية. ومن مصادر دخل المسن بعد الحرب في سورية:

أ- **التقاعد والراتب التقاعدي:** إن كلمة التقاعد بحد ذاتها قد تسبب مشكلات

نفسية وتوتر واكتئاب للمسنين وذويهم فهي تعطي رسالة نهاية مهمة الإنسان وإحالته للمعاش، والراتب التقاعدي الذي يأخذه المسنون في سورية من القطاع العام وفيما ندر هناك رواتب تقاعدية من القطاع الخاص خاصة لأصحاب المهن، كما يتفاوت الراتب التقاعدي للمسنين بحسب الوظائف التي كان المسن يشغلها، وفي ظل الحرب أصبح الراتب تحدي جديد يواجه المسن وأهله لأنه لا يغطي تكاليف حياته اليومية على الأغلب.

ب- مال المسن الخاص: قد يدَّخر بعض المسنون المال لآخر حياتهم وهو مالهم الخاص وينفقون منه وهو استعداد مسبق لمرحلة الشيخوخة من قِبَل المسن نفسه.

جـ- أحد أفراد أسرة المسن: قد يقوم أحد أبناء المسن أو إخوته أو أخواته أو أكثر من فرد بالعائلة بتأمين دخل المسن والإنفاق على مستلزماته وحياته اليومية.

د- الاستمرار في عمل أو مهنة سابقة: لقد اضطر بعض المسنين متابعة أعمال غير الوظيفة من أجل تأمين لقمة العيش وخاصة المسنون في الريف ومتابعتهم للعمل الزراعي أو بعض الحِرَف اليدوية والمِهَن الصناعية والتجارية.

هـ- تعلُّم أو ممارسة عمل جديد: بسبب ظروف الحرب القاسية، اضطرب بعض كبار السن إلى ممارسة مهن جديدة أو تعلُّم حِرَف أو العمل بأعمال جديدة لم يسبق لهم العمل بها وهذا لتأمين الدخل لهم أو للأسرة التي هو جزء منها مع العلم أن فرص عمل المسن قد تكون شبه نادرة وغير موجودة وتحتاج لجهد شخصي من المسن وذويه.

و- الإعانة من قِبَل المؤسسات الحكومية والمنظمات الإنسانية: قامت المؤسسات الحكومية والجمعيات الخيرية والمنظمات الإنسانية في سورية بجهد كبير لتأمين احتياجات الأسر السورية والتي يُعَدُّ المسن أحد أفرادها وتنوعت هذه الخدمات من تأمين مشاريع صغيرة لبداية عمل جديد أو تأمين المواد الغذائية والمعلَّبات والمواد الأولية للغذاء، بالإضافة للتبرعات من أفراد المجتمع في سورية والتبرعات الخارجية ومع كل الجهود المبذولة قد لا تستطيع الإمكانات تغطية كل الأسر في الريف والمدينة وتلبية حاجات المسن خاصة الجانب الصحي وإجراء بعض العمليات الباهظة الثمن وتأمين الأدوية الغالية الشهرية لعلاج أمراض الشيخوخة (أمراض القلب، هشاشة العظام، الشلل، ألزهايمر، الأعصاب، الديسك... إلخ)، مما يُصَعِّب مهمة هذه المؤسسات بسبب اختلاف الحالات الفردية للمسن وعدم استيعاب كل المسنين والأعداد الكبيرة لأسرهم.

الإطار الميداني

8-1-مجالات البحث: تتحدد مجالات البحث في ثلاثة مجالات وفق الآتية:

8-1-1-المجال البشري: هم المسنون ضمن الفئة العمرية من ستون سنة فأكثر والقاطنين في محافظة دمشق خلال فترة إجراء البحث.

8-1-2- المجال المكاني: شكلت محافظة دمشق بحدودها الإدارية المجال المكاني للبحث.

8-1-3-المجال الزماني: تموز 2021.

8-2-طريقة البحث وأداته وسحب العينة: استخدم البحث المنهج الوصفي والتحليلي وطريقة الاستبيان غير الرسمي أو المسح غير الرسمي (informal survey) وهي دون استمارة، يتم تحديد نقاط ومواضيع محددة (Topics) تتم مناقشتها عن طريق المقابلات الفردية والجماعية، ومناقشة المستهدفين أو الأشخاص المهتمين بالمستهدفين أو القائمين على رعايتهم من خلال إعداد أسئلة مسبقة تُطْرَح للنقاش والمقابلة وإبداء الرأي بمجموعات من قِبَل المستهدفين والمهتمين بهم.

وتم سحب عينة بشكل عشوائي لتشمل جميع المستويات الاجتماعية والاقتصادية والتعليمية والصحية والنفسية والثقافية. وتم دعوة المسنين للمقابلة والمناقشة الجماعية في المشكلات واحتياجات المسنين بعد الحرب في سورية لاستنتاج مشكلات المسنين واحتياجاتهم الجديدة وتلخيص معاناتهم في البحث وتم تنفيذ (10) مجموعات وبلغ عدد المشاركين الإجمالي (100 مشارك).

نتائج البحث ومناقشتها

1- احتياجات المسنين في سورية بعد الحرب: من الدراسة البحثية والميدانية إن واقع المسنين بعد الحرب التي يعيشونها أكبر بحسب العمر والوضع الجسدي والصحي... إلخ.

1-1- الاحتياجات الاقتصادية للمسنين بعد الحرب في سورية: من خلال البحث الميداني تبين أن المشكلات الاقتصادية والحاجة المادية هي الأكثر أهمية في واقع المسنين بسبب تداخلها وارتباطها مع الوضع الصحي والاجتماعي والنفسي والخدمي والترفيهي ولهذه الجوانب كافة أرضية هي توفر المستوى المادي اللائق... حيث بَيَّنَ البحث الميداني عن الراتب التقاعدي أولًا أنه لم يَعُدْ يكفي المستلزمات الحياتية اليومية بعد الحرب في سورية، مع العلم أنه كان مقبولًا وجيداً ويؤمن أهم الحاجات الأساسية للمسن قبل الحرب، مما يعني أن الراتب التقاعدي والأجور لا تغطي حاجات المسن المادية الأساسية اليوم. وهذا يعود إلى ارتفاع الأسعار وغلاء المعيشة ولم يَعُدْ الراتب التقاعدي مدروساً بشكل جيد.

من جهة أخرى عدم توفر فرص عمل للمسنين بعد الحرب حيث طلب السوق هو لعمر الشباب والنضج ولكن المسنون حظوظهم أقل وفرص عملهم قبل الحرب كانت قليلة والآن شبه معدومة مما أدى إلى عدم وجود مكاسب مادية كما أشار البعض أن حياتهم انقلبت جذرياً بسبب الحرب فقد تركوا أراضيهم وأرزاقهم وتدمرت بيوتهم وأموالهم بشكل كامل أو جزئي مما زاد الثقل المادي وهَمَّ الحصول على مورد للعيش الكريم، خاصة أن المسن في هذا العمر بحاجة لأدوية إضافية بسبب كِبَر

السن وغذاء صحي محدد وڤيتامينات وأجهزة مساعِدة ونظارات وسماعات وزيارات للطبيب ومستشفيات وأحياناً دفع أجور للمساعدين والممرضين والمرافقين، ناهيك عن التدفئة والكهرباء وفواتير الهاتف والغاز... إلخ وقد اضطر بعض المسنين إعالة أحفادهم أو أقربائهم بسبب غياب الأب أو سفره أو خدمة العلم... هذا يعني زيادة الضغوط الاقتصادية على المسنين وعدم الحماية الاقتصادية للمسنات في الريف والمدينة ومن جهة أخرى أوضح بعض المسنين أنهم أكثر إيجابية وبدؤوا حياة جديدة بمشاريع بسيطة هي مصدر دخلهم ودخل أسرهم وهم أكثر تفاؤلًا وإصراراً على الحياة وخلق واقع أفضل لهم.

1-2- الاحتياجات الخدمية للمسنين بعد الحرب في سورية: إن واقع المسنين الخدمي بعد الحرب في سورية يشكِّل تحدّياً كبيراً للمسنين، لأن المسنين يعانون بعد الحرب من صعوبة تأمين المصادر والوسائل الخدمية (السكن، النظافة الشخصية، الطبخ، الحمّام، البيئة السليمة في الهواء والشمس، المشي، المواصلات... إلخ)، كما يواجه المسنون بعد الحرب مشكلات لم يعانوا منها إطلاقاً قبل الحرب، وهو الوقوف لساعات طويلة على فرن الخبز وطابور الغاز وتأمين المازوت والبنزين وقدرتهم الجسدية لا تساعدهم بالوقوف لساعات، إضافةً إلى أن جسمهم يكبر سنة وراء سنة، فهم أول سنين استطاعوا لفترة ما، لكن مع شدة حر الصيف وبرودة الشتاء يصبح الأمر صعباً جداً، وبسبب غياب المعيل في الأسرة وسفر الأبناء، يضطر المسن لمساعدة نفسه بنفسه أو الاعتماد على أحد الأنباء والأقارب إن وجد، وإن تكلفة مرافق أو مساعد للمسن هي مبلغ كبير لا يستطيع المسن دفع ثمنه دائماً. حيث من يقوم بخدمة المسن من قبل هو الزوج أو الزوجة أو الأبناء أو

الأقارب أو الأحفاد وفيما ندر الذهاب لدُور المسنين وبسبب الحرب انحسر دور الأسرة في خدمة المسنين لأسباب متفاوتة ومتعددة والذهاب لدُور المسنين غير مستحب اجتماعياً ومُكْلِف في الدُّور الخاصة مما رأى أن المسنون يستطيعون أن يخدموا أنفسهم لفترة في نواحي الحياة ولكن لا يعرفون متى تضعف هذه المقدرة كما أن المرأة المسنة الدور الأكبر في تقديم الخدمات لها وللمسن ولكل أفراد المسنة طالما تستطيع ذلك حيث تبين في البحث أن الزوجة هي الداعم والحاضن الأول لتدبير الأمور الخدمية للمسن ويتمنى المسنون الاعتماد على أنفسهم وأن لا يكونوا عالة وثقل على أحد.

الاستنتاجات والمقترحات:

الاستنتاجات:

1. يعاني المسنون في سورية بعد الحرب من احتياجات ومشكلات إضافية نتجت عن الظروف القاهرة للحرب.

2. يمثل الاحتياجات الاقتصادية وتلبيتها المفتاح الأول لحل مشكلات المسنين وباقي احتياجاتهم.

3. عدم تغطية الراتب التقاعدي بعد الحرب في سورية لمستلزمات المسنين الأساسية وعدم وجود فرص عمل جديدة أو قديمة للمسنين.

4. يعاني أغلب المسنين بعد الحرب من تأمين الوسائل الخدمية من خبز ومازوت وغاز بالإضافة إلى صعوبة تدبير أمورهم الحياتية والمنزلية اليومية (طبخ، تنظيف،

حمّام، مواصلات).

5. ما زالت الأسرة هي الداعم الأول للمسنين في سورية بعد الحرب في كافة الجوانب الاقتصادية والخدمية.

6. الصُّعوبة الشديدة في الحصول على دخل يكفي المسن وتغطية التكاليف الصحية والخدمية والمستلزمات اليومية.

7. إصرار بعض المسنين على مواجهة الصعوبات الجديدة وإيجاد الحلول البديلة ومساعدة أبنائهم وأسرهم.

المقترحات:

1. التركيز على زيادة الأبحاث والإحصائيات لكبار السن في سورية والتوسع في قاعدة بيانات لهم والأرقام الإحصائية والتحليل السوسيولوجي لهذه الأرقام.

2. تغيير سن التقاعد في سورية ودراسة تمديد عمر التقاعد لما بعد (65 سنة) لبعض المهن.

3. زيادة الرواتب التقاعدية ليغطي مستلزمات المسن الحياتية.

4. صياغة (بطاقة مسن) كوسيلة دعم للمسن بالحصول على تخفيضات ماء والكهرباء والمحروقات والمواصلات والتسهيلات والامتيازات في المؤسسات الرسمية وغير الرسمية.

5. تأمين كوادر رعائية وخدمية تخدم المسن وتؤمن احتياجاتها بالتعاون مع الجمعيات الخيرية والمؤسسات الرسمية.

6. التأكيد على دور الإعلام والسوشال ميديا في تمكين المسن.

7. إيجاد فرص عمل للمسنين تتناسب مع أعمارهم.

المراجع:

1. إسماعيل، عزت سيد، *الشيخوخة أسبابها ومضاعفاتها*، الكويت، وكالة المطبوعات، 1983.
2. بريك، يوسف، *أوضاع المسنين واحتياجاتهم في دُور الرعاية المرخَّصة في سورية*، الهيئة السورية لشؤون الأسرة، دمشق، 2010.
3. صندوق الأمم المتحدة، اللجنة الاقتصادية الاجتماعية لغربي آسيا، الجمعية العالمية الثانية للشيخوخة، الاجتماع العربي التحضيري لمؤتمر الأمم المتحدة للمسنين (خطة العمل العربية حتى 2014)، بيروت، 2007.
4. عاقل، فاخر، *علماء نفس أثروا في التربية*، سورية، شعاع للنشر والعلوم، 2004.
5. العبيدي، إبراهيم محمد، *علم الشيخوخة الاجتماعي*، الرياض، دار الزهراء للنشر، 2003.
6. فحل، نبيل محمد، *الاكتئاب النفسي للمسنين*، القاهرة، دار قباء، 2004.
7. قصاب حسن، نجوى، *واقع المسنين والارتقاء بأوضاعهم*، الهيئة السورية لشؤون الأسرة، دمشق.
8. المجموعة الإحصائية السورية، 2005.
9. محطة الأخبار السورية.
10. مركز الدراسات لكبار السن، *التعمير في البلدان العربية* (البحوث السياسات، التنمية، صندوق الأمم المتحدة للسكان، بيروت، 2009.

11. مزيد، ربى، *تقييم تجربة الرعاية الإيوائية للمسنين في محافظة دمشق*، سورية، 2009.

12. الهيئة السورية لشؤون الأسرة والسكان، *تقييم احتياجات الحماية للمسنين*، سورية، 2019.